

علامة الأربعة

عصير الكتب

علامة الأربعة





إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

الطبعة الأولى: مايو 2021م
رقم الإيداع: 2021/7862م
الترقيم الدولي: 978-977-85876-5-4
تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

العنوان: علامة الأربعة
ترجمة: محمد عبد العزيز
تحرير: محمد الجيزاوي
تدقيق لغوي: منى عبد الهادي الشريف

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار





علامة الأربعة



الفصل الأول

علم الاستنتاج

مدَّ «شيرلوك هولمز» يده فالتقط القنينة من فوق رف الموقد، والتقط المحقن من داخل جرابه الجلدي الأنيق، وبأنامله البيضاء الطويلة قام بضبط سن المحقن الرفيعة وشمَّر كُمَّ قميصه الأيسر بهدوء..

أخذ يتأمل لثوانٍ هيئة ساعده ورسغه اللذين امتلئا بآثار الحقن السابقة، قبل أن يغرس في النهاية سن المحقن في مكانها، ويضغط على مكبسه الصغير، ثم استرخى في مقعده مُطلقًا تنهيدة ارتياح طويلة..

شاء لي القدر أن أشاهد هذا المنظر لثلاث مرات يوميًّا، ولشهور عدة. تكرار هذا المشهد أمامي لم يساعد عقلي على تقبله؛ بل على العكس، كان ضيقي يزداد لهذا المشهد يومًا بعد يوم، وظللت نهبًا لتأنيب الضمير كل ليلة كلما راودتني فكرة أنني لا أملك الشجاعة الكافية لأبدي اعتراضي عليه..

أقسمت بيني وبين نفسي لأكثر من مرة على مواجهته بصراحة، ولكن أسلوب رفيقي بكل ما فيه من برود ولا مبالاة، لا يشجع المرء على التحدث معه بحرية بخصوص موضوع شخصي مثل هذا.. كما أن قدراته الكبيرة وأسلوبه البارع، بالإضافة للعديد من الصفات الاستثنائية الأخرى التي لديه، كل هذا يجعلني أتراجع عن الدخول في أي موقف قد يزعجه..

لكنني في عصر ذلك اليوم، وربما بفعل النبيذ الفاخر الذي تناولته مع الغداء، وربما لحنقي المتراكم، شعرت أنني لا أستطيع التحمل وكتم الموضوع بداخلي أكثر من هذا..

فسألته:

- ما الذي تتناوله اليوم؟ مورفين أم كوكايين؟

رفع عينيه بوجوم عن الكتاب الذي بين يديه، كان كتابًا قديمًا عنوانه مكتوب باللون الأسود، وأجابني:

- كوكايين.. محلول تركيزه 7 بالمئة.. هل ترغب في تجربته؟

أجبته بحدة:

- طبعًا لا! جسدي لم يتعافَ بعد من آثار الحملة الأفغانية، وليست لدي نية لإرهاقه بالمزيد!

تبسَّم رغم حدة ردي، وقال:

- ربما كنتَ مُحقًّا يا واتسون.. أعتقد أن تأثيره سيئ على الجسد، لكنه يقوم بتنشيط ذهني لدرجةٍ تجعل من آثاره الجانبية أمرًا ثانويًّا يمكن احتماله..

لكنني لم أتقبل جوابه، وقلت بجدية:

– يجب أن تفكر في العواقب! ربما يقوم بتنشيط ذهنك على حد قولك، لكنك تدفع الثمن من صحتك! تعرف جيدًا أنه يتسبب في الكثير من التغييرات بخلايا الجسد، وقد يؤدي إلى ضعف مستديم في الجسم، تعرف كذلك أنه يجعلك أكثر عصبية، فهل يستحق كل هذا العناء.. لِمَ تغامر بفقدان كل ما لديك من قدرات عظيمة منحك القدر إياها مقابل لحظات معدودات من اللذة العابرة؟ فلتتذكر يا هولمز أنني لا أحدثك بصفتي صديقك فقط، وإنما كذلك باعتباري الطبيب المسؤول عن صحتك!

لم يبد عليه أي شعور بالإهانة من كلامي، بل بدا عليه أنه يرغب في النقاش، فشبك أطراف أصابع يديه معًا، وأسند مرفقيه على ذراعي كرسيه.. وقال أخيرًا:

– المشكلة يا واتسون أن عقلي يثور على هذا الركود والملل اللذين يحيطان بي! أعطني لغزًا يشغل عقلي، أو أعقد الشفرات لأحلها، أو أصعب التحليلات لأقوم بها، وسأكون وقتها وسط بيئتي الطبيعية، وحينها بوسعي التخلي عن تلك المحفزات الصناعية.. لَكَم أكره روتين الحياة اليومية الممل هذا! أتمنى الحصول على بعض النشاط الذهني، فلهذا السبب بالتحديد اخترت تلك المهنة، أو بالأصح ابتكرتها، فأنا الوحيد في العالم الذي يمتهنها.

وهنا لم أتمالك؛ فرفعتُ حاجبيَّ بدهشة، وأنا أسأله:

– وهل أنت المحقق غير الرسمي الوحيد في العالم؟!

أجابني:

– المحقق الاستشاري غير الرسمي الوحيد؛ لأنني بمكانة أعلى وأحدث محكمة استئناف بعالم التحقيقات.. وعندما يواجه «جريجسون»، أو «ليستراد»، أو «أثيلني جونز» ما يتعدى حدودهم العقلية، كذلك يجب أن أعترف لك بأن هذا يحدث كثيرًا، فإنهم يضعون الموضوع بين يديَّ.. وهنا أقوم بفحص البيانات والمعلومات المتعلقة بالموضوع كخبير، قبل أن أصدر حكمي بصفتي متخصصًا.. لكنني بالنهاية لا أنسب الفضل لنفسي بتلك القضايا، ولا يظهر اسمي في أي جريدة.. والحقيقة أنني لا أبالي بهذا، لأن مكافأتي الكبرى هي العمل ذاته، ومتعتي تتمثَّل في ممارسة مهاراتي الذهنية المتميزة.. أنت بنفسك شاهدت أساليبي في العمل خلال قضية «جيفرسون هوب»، أليس صحيحًا؟

قلت مبتسمًا:

– بلى، صحيح، ولم أنبهر طيلة حياتي بشيء أكثر مما فعلتَه حينها، حتى إنني قمت بتسجيل أحداثها في كُتيب تحت عنوان غير مألوف نوعًا ما، وهو: «دراسة في اللون القرمزي».

فهزَّ رأسه بيأس معلقًا:

– أعرف.. قد ألقيت نظرة عليه، ولا أستطيع أن أهنئك عليه بصراحة، إن عمل التحقيق في الحياة الواقعية علم دقيق، أو يجب النظر إليه هكذا، ويُعامل من هذا المنطلق البارد الخالي من المشاعر.. أما ما فعلته أنت بكتيبك هذا، أنك حاولت إضفاء مسحة رومانسية عليه، فظهرت النتيجة المؤسفة، كأنك تحاول إقحام قصة عاطفية، أو قصة هروب حبيبين، داخل نظرية «إقليدس» الخامسة!

اعترضت على كلامه:

– لكن تلك الرومانسية كانت موجودة حقًّا.. لم أتلاعب بالحقائق!

– يجب إخفاء بعض الحقائق يا عزيزي، أو على الأقل معالجتها بقدرٍ من التوازن.. النقطة الوحيدة التي كانت تستحق الذكر في القضية كلها هي الاستدلال التحليلي الدقيق الذي قادني من النتائج إلى الأسباب، وبسببه نجحت في حل تلك القضية الغريبة.

شعرت بالغضب أمام نقده لهذا العمل الذي لم أقم به إلا لكي أسعده.. أعترف أنني غضبت كذلك من رغبته في أن أقوم بتخصيص كل سطر من كتابي للحديث عما يقوم به من أفعال مميزة.. ففي خلال السنوات العدة التي عشتها معه في شارع «بيكر»، لاحظت عدة مرات أن أسلوب رفيقي الهادئ يشوبه قدر لا بأس به من الغرور والاعتداد بالنفس.. لم أعلق على كلامه على أي حال، وجلست أعالج ساقي التي أُصبت فيها برصاصة من بندقية قنص منذ فترة طويلة.. ومع أنها لم تكن تعوقني عن المشي، إلا أنها كانت تؤلمني بشدة كلما تغير الطقس حولي..

شرع هولمز في ملأ غليونه الخشبي العتيق، ثم لم يلبث أن قال:

– في الفترة الأخيرة امتدت نشاطاتي إلى أنحاء قارة أوروبا، في الأسبوع الماضي أتاني «فرانسوا لوفيلارد» لاستشاراتي، والذي كما تعلم صارت له شهرة في ساحة التحقيقات بفرنسا الفترة الأخيرة.. أعتقد أن له سرعة البديهة التي تميز بها أسلافه السلتيين، لكنه في ذات الوقت تنقصه المعرفة الدقيقة بالمجالات التي يجب أن يهتم بها، ليتمكن من تطوير نفسه وقدراته.. استشارني في قضية تتعلق بوصية ما، بها بعض النقاط المثيرة للاهتمام.. قمت بتذكيره بقضيتين مشابهتين للقضية موضوع النقاش، واحدة منهما حدثت في «ريجا» عام 1857، والأخرى حدثت في «سانت لويس» بعام 1871، وهو ما قاده في النهاية للحل الصحيح.. هاك الخطاب الذي تلقيته منه هذا الصباح، لشكري على المساعدة القيمة التي قدمتها له.

وأتبع جملته بأن ألقى نحوي بورقة مكرمشة من دفتر ملاحظات أجنبي.. مررت بعينيَّ سريعًا على الكلمات، فلمحت الكثير من عبارات الثناء والإعجاب بأماكن متفرقة من الرسالة، ومن ضمنها: «عظيم»، و«يا لها من ضربة قوية»، و«قدرات فائقة»، مما دلني على مدى إعجاب الرجل به.

قلت:

– من يقرأ يظنه طالبًا يتحدث مع معلمه..

أجابني ببساطة:

– إنه يبالغ فقط.. لديه الكثير من المواهب حقًّا، فهو يملك صفتين من أهم الصفات التي تميز المحقق المثالي: قوة الملاحظة، والقدرة على الاستنتاج.. لا ينقصه إلا المعرفة، وأثق أنها ستأتيه مع الوقت، وهو يقوم حاليًا بترجمة أعمالي المتواضعة للغة الفرنسية.

– أعمالك؟

هتف ضاحكًا:

– نعم.. ألم تكن تعرف؟ لقد قمت بكتابة عدة دراسات، كلها تتعلق بموضوعات تقنية، فهناك مثلًا دراسة منها حول التمييز بين الرماد المتخلف عن الأنواع المختلفة من التبغ، وذكرتُ في تلك الدراسة مئة وأربعين نوعًا من التبغ والسجائر والغليون، وأدرجت بها العديد من الصور الملونة التي توضح الفارق بين الرماد المتبقي من كل نوعية منها.. وهذه نقطة تثار دومًا في المحاكمات الجنائية، وأحيانًا ما تكون ذات أهمية شديدة كدليل إدانة أو براءة.. فمثلًا، لو تمكنت من إثبات أن الجاني كان يدخن سيجارًا ماركة «لونكا» الهندية، فسيتسبب هذا في تضييق مجال البحث بالتأكيد.. ومن السهل للغاية للعين المدربة تمييز الفارق بين الرماد الأسود المُتخلِّف عن سيجارة ماركة «تريكينوبولي»، والرماد الأبيض المُتخلِّف عن تبغ «بيردز آي»، وسيكون هذا في سهولة التفريق بين الكرنب والبطاطس..

– أعترف أن لديك موهبة فذة في التعامل مع أدق التفاصيل.

– لأنني أقدر أهميتها.. وهناك دراسة أخرى كتبتها عن اقتفاء آثار الأقدام، وبها بعض الملاحظات عن استعمال الجبس لحفظ الآثار جيدًا.. وهناك دراسة أخرى مثيرة للاهتمام كذلك، تتحدث عن تأثير مهنة المرء على شكل يديه، ألحقت بها نموذجًا لبصمات أيدي عامل بناء أسقف، وبحارة، وقاطِعي فلين، وعاملين بالطباعة، ونساجين، ومُلمِّعي ألماس.. وهذه النقطة تمثل أهمية قصوى للمحقق العلمي، خصوصًا في حالة القضايا التي تتضمن جثثًا مجهولة الهوية، أو في حالة اكتشاف سوابق للمجرمين.. لابد أنني أسأمتك بتلك الثرثرة، أليس صحيحًا؟

أجبته بكل جدية:

– نعم، فهذه الموضوعات تثير اهتمامي للغاية، خصوصًا وقد سنحت لي الفرصة لمشاهدة تطبيقك العملي لها.. لكنك تحدثت منذ لحظات عن الملاحظة والاستنتاج، أوليس الاثنان وجهين لعملة واحدة؟

تراجع بظهره للخلف متكئًا على كرسيه الوثير، وأخذ يزفر دُخانًا كثيفًا أزرق اللون نحو السقف قبل أن يجيبني:

– ليس بالضرورة، فعلى سبيل المثال، قد عرفت بفضل بعض الملاحظات أنك قد ذهبت هذا الصباح لمكتب البريد الموجود بشارع «ويجمور»، أما الاستنتاج فقد ساعدني على معرفة أنك قمت بإرسال برقية من هناك، أليس ذلك صحيحًا؟

قلت مذهولًا:

– بلى! النقطتان صحيحتان! لكن كيف تمكنت من التوصل لكل هذا؟ لقد كان ذهابي قرارًا مفاجئًا ولم أخبر به أحدًا!

ضحك مستمتعًا بإثارة دهشتي وهو يجيب:

– الموضوع بسيط للغاية، بسيط لدرجة أنه لا يستحق الشرح؛ ومع ذلك فقد يسهم شرحي له في توضيح الفارق بين الملاحظة والاستنتاج.. لقد ساعدتني الملاحظة على رؤية بعض الطين الأحمر اللون الذي التصق بكعب حذائك.. وأنا أعرف أنه قد تمت إعادة رصف الشارع أمام مكتب البريد الموجود بشارع «سايمور»، بطريقة تجعل من الصعب تفادي المشي فوقه عند الدخول.. وعلى حد علمي لا يوجد

مثل هذا الطين ذو اللون المميز في مكان آخر بهذا الحي.. كل ما سبق كان نتيجة للملاحظة، أما الباقي فهو استنتاج من جانبي..

– هممم.. وكيف استنتجت موضوع البرقية إذن؟

– أعرف أنك لم تقم بكتابة أي خطاب قبل خروجك، فأنا أجلس أمامك طيلة النهار يا عزيزي، وأرى أيضًا على مكتبك المفتوح مجموعة من الطوابع، ومجموعة من البطاقات البريدية.. ماذا قد يجعلك تذهب لمكتب البريد لو لم يكن لإرسال برقية؟ عندما تستبعد جميع الاحتمالات، ستجد المتبقي هو الحقيقة مهما كانت غريبة..

فكرت قليلًا ثم قلت:

– أعترف أنك كنت مُحقًّا بكل ما قلته هذه المرة.. لكن كما قلت أنت بنفسك، فالموضوع كان استنتاجه سهلًا.. هل ستعدني وقحًا لو اختبرت نظرياتك بامتحان أصعب؟

– على الإطلاق، بل إن هذا سيمنعني من أخذ جرعة أخرى من الكوكايين، سيسرني جدًّا أن أتفقد أي مشكلة تعرضها عليَّ.

– سمعتك تقول قبلًا أن المرء يترك دومًا أثرًا على أي غرض يستخدمه يوميًّا، وهذا الأثر تسهُل ملاحظته للعين المدربة.. معي الآن ساعة جيب وصلت لحوزتي مؤخرًا بطريقة ما، وأريد أن أعرف إذا كان بوسعك إخباري أي شيء عن صاحبها السابق أو عاداته؟

ناولته الساعة وبدأت أشعر ببعض الاستمتاع حقًّا، فقد كان هذا اختبارًا مستحيل الحل من وجهة نظري، ولم أستخدمه إلا لتلقينه درسًا ليتوقف عن استخدام نبرته الواثقة هذه. أمسك الساعة بيده كأنما يَزِنها، ثم فتحها من الخلف وفحصها من الداخل، بعينه المجردة أولًا، ثم بعدسته المقربة ثانيًا. منعت نفسي بصعوبة من الضحك عندما ارتسمت على عينيه معالم خيبة الأمل وهو يغلق علبتها قبل أن يعيدها لي قائلًا:

– لا تكاد توجد أي بيانات مفيدة عليها، فقد جرى تنظيفها مؤخرًا، وذلك منعني من رؤية الحقائق كاملة.

– هذا صحيح، فقد تم تنظيفها جيدًا قبل إرسالها لي..

شعرت أنه يقدم تلك الحجة الواهية، ليبرر فشله، فما المعلومات التي يتوقع الحصول عليها من ساعةٍ، لم يتم تنظيفها على أي حال؟

أخذ يحدق إلى سقف الحجرة بعينين شاردتين وقال:

– مع أنني لم أتمكن من الحصول على ما يكفي من إشارات خلال فحصها، فإنني حصلت على بعض المعلومات.. فلتصحح لي لو أخطأت، لكنني أعتقد أن هذه الساعة كانت ملكًا لأخيك الأكبر، والذي ورثها بدوره عن أبيكما، أليس ذلك صحيحًا؟

– لكنك خمنت هذا بسبب حرفي «ه..و» المنقوشين على ظهرها، أليس ذلك صحيحًا؟

– بلى صحيح، فقد عرفت أن حرف الواو يشير لعائلتك.. أما عمر الساعة فيعود لنحو خمسين عامًا، والأحرف المنقوشة من نفس عمرها؛ وبالتالي فهي مصنوعة لشخص من الجيل السابق لنا، وعادة ما يتم توريث مثل تلك المقتنيات الثمينة للابن الأكبر الذي يكون اسمه الأخير هو نفس اسم الأب في الغالب.. ولو لم تخني الذاكرة، فقد مات والدك منذ عدة سنوات؛ وبالتالي انتقلت ملكية هذه الساعة لأخيك الأكبر.

– كل ما قلته صحيح.. هل توصلت لشيء آخر؟

– همم.. كان أخوك رجلًا غير مرتب، و- اغفر لي وقاحتي- مهملًا للغاية، لقد حصل على الكثير من الفرص الجيدة، لكنه بددها، فعاش فقيرًا لفترة من الوقت، تخللتها فترات قصيرة من الثراء، وأخيرًا أدمن الشراب، ثم مات.. هذا كل ما أمكنني معرفته..

وهنا نهضتُ من مجلسي حانقًا، وأخذت أسير عبر الحجرة باستياء وقلبي يقطر مرارة.. قلت له:

– لم أتصور أنك قد تنحدر لمثل هذا المستوى يا هولمز! لا بد أنك تحريت من قبل عن حياة أخي منكود الحظ، ثم تظاهرتَ أمامي الآن بأنك قد توصلت لكل هذا بتلك الطريقة الخيالية.. لا تتوقع مني تصديق أنك قد استنتجت كل هذا من تلك الساعة العتيقة! كم هو مقزز ما فعلته، وبصراحة يبدو كدجل الغجر!

قال بلطف:

– تقبل أشد أسفي يا صديقي العزيز، فقد نظرت للأمر على أنه مشكلة مجردة، ولم أضع بحسباني كم أن هذا مؤلم وشخصي لك.. لكن تأكد أنني لم أكن أعلم بأن لك أخًا من الأساس قبل أن تريني تلك الساعة.

– إذن فكيف تمكنت من التوصل لكل هذا بحق السماء؟ فكل ما ذكرته صحيحًا، حتى أدق التفاصيل!

– حسنًا.. كان حظي جيدًا.. لم أقل إلا ما رجحه ميزان الاحتمالات، ولم أتوقع أن تكون النتيجة صحيحة لتلك الدرجة.

– ألم يكن ما قلته مجرد تخمين؟

– لا، فأنا لا أقوم بالتخمين أبدًا، لأنه عادة مريعة أكرهها بشدة، وتأثيرها سيئ على ملكة التفكير المنطقي على المدى الطويل.. أنت ترى هذا غريبًا عليك، لأنك لا تتبع أسلوب تفكيري، ولا تقوم بملاحظة الحقائق الصغيرة التي يمكن للمرء أن يبني عليها استنتاجات كبيرة! فعلى سبيل المثال، أول ما قلته عن أخيك أنه كان مهملًا، وإذا نظرت للجانب السفلي من علبة الساعة لعرفت السبب، فهي ليست منبعجة فقط بمكانين مختلفين، وإنما تغطيها أيضًا الكثير من الخدوش والعلامات، بسبب وضع بعض الأشياء الحادة، مثل العملات المعدنية، أو بعض المفاتيح مثلًا، معها داخل نفس الجيب.. وطبعًا اكتشاف أن رجلًا يعامل ساعة ثمينة قيمتها لا تقل عن خمسين جنيهًا إسترلينيًّا بمثل هذا الإهمال، لا يضع الكثير من الشكوك حول كونه مهملًا؛ فالموضوع منطقي.. كان من السهل كذلك أن أستدل من وراثته لمثل تلك الساعة الثمينة أنه قد ورث إلى جانبها ما يكفيه لعيش حياة رغدة..

أومأت برأسي إيجابًا دلالة على اقتناعي باستدلالاته المنطقية، فأكمل:

– ولأنني أعرف أن من عادة أصحاب محلات الرهونات في إنجلترا عندما يرهنون ساعة شخص ما، أنهم ينقشون رقم التذكرة داخل علبة الساعة بسن حادة، لأن هذا عملي أكثر، عن لصق الرقم عليها، فلا يخاطرون باحتمالية ضياع الرقم من فوق الساعة أو تبديله.. المهم في الأمر.. لقد رأيت ما لا يقل عن أربعة من هذه الأرقام بعدستي داخل علبة الساعة، فاستدللت من هذا أن أخاك كثيرًا ما كان يمر بضائقة مالية – ومع ما اتفقنا عليه من أنه قد ورث الكثير مع تلك الساعة مسبقًا– فاضطر لرهنها.. كما استدللت من تكرار تلك الأرقام بالعلبة أنه كان يمر بفترات رخاء مادية، وإلا لما كان بإمكانه تسديد مبلغ الرهن واستعادة الساعة في كل مرة.. وآخر نقطة، أريد منك أن تنظر للثقب الداخلي الذي يوجد فيه ثقب المفتاح.. انظر لآلاف الخدوش التي تحيط به، وهي علامة على أن المفتاح كان ينزلق بعيدًا عن الفتحة فلا يدخل بسهولة من المحاولة الأولى، ودعني أسألك: أهناك رجل غير مخمور يترك مثل هاته العلامات؟ لا، بالطبع، لكنك بنفس الوقت لن تجد ساعة سكير تخلو منها؛ لأنه يعيد ساعته لعلبتها بالليل، فتترك يده المرتعشة مثل تلك الآثار.. هل ترى أي غموض في كل ذلك؟

– بل هو واضح كالشمس.. أعتذر عما بدر مني منذ لحظات من إساءة لك؛ فالمفترض أن أثق بقدراتك المذهلة أكثر من هذا.. هل تسمح لي بسؤالك إن كنت تتولى أي قضية الآن؟

– على الإطلاق، وهذا هو سبب لجوئي للكوكايين؛ لأنني لا أستطيع الحياة دون استثارة عقلي! هل يوجد ما يستحق الحياة غير هذا؟ فلتنظر عبر تلك النافذة يا واتسون.. هل رأيت بعمرك شيئًا أكثر بعثًا للكآبة والانقباض أكثر من منظر ذلك العالم الموجود في الخارج؟ أرأيت كيف تزحف سحب الضباب الأصفر الكريه لتبسط مخالبها فتغطي الشارع، وتلتف حول المنازل القاتمة الألوان.. أيوجد ما هو أكثر إثارة للملل من هذا؟ ما فائدة التمتع بقدرات ذهنية فائقة لو لم يكن أمام الشخص الفرصة لاستعمالها؟ الجريمة أمر عادي، والوجود نفسه كذلك أمر عادي، ولا توجد أي صفات عادية أخرى لها فائدة حقيقية غيرهما.

بمجرد أن فتحت فمي للرد عليه وعلى خطبته الطويلة هذه، ارتفعت طرقات صاحبة المنزل على الباب، وسرعان ما كانت تدخل وهي تحمل صينية فضية صغيرة استقرت فوقها بطاقة.. قدمت تلك البطاقة لهولمز، وهي تقول له:

– هناك امرأة شابة تطلب مقابلتك يا سيد هولمز.

التقط هولمز البطاقة، وقرأ بصوت عالٍ:

– الآنسة «ماري موريستان»؟ لا أذكر الاسم.. حسنًا.. اطلبي من الآنسة أن تصعد إلينا يا مدام «هادسون».. لا تذهب أيها الطبيب، فأنا أفضل بقاءك معي..

****

الفصل الثاني

بيان القضية

سرعان ما كانت الآنسة «موريستان» تدخل الحجرة بخطوات واثقة.. كانت شابة شقراء ضئيلة الجسد، شديدة الأناقة بملابسها، سليمة الذوق والقفاز السميك الذي ترتديه، مع ما كانت عليه ملابسها من بساطة تدل على قلة مواردها المالية وحالها المتواضع.. كان ثوبها ذا لون عسلي داكن يميل للرمادي، غير مشذب الأطراف، وعلى رأسها قبعة من نفس اللون الباهت، لا يعكر كآبة لونها إلا وجود بعض الريش الأبيض على جانبها.. لم تكن ملامحها مميزة، ولا بشرتها جذابة، لكن تعبيرات وجهها لطيفة ومريحة، وعيناها الزرقاوان الواسعتان في غاية الجمال..

الواقع أنني لم أرَ وجهًا بمثل تلك الرقة والحساسية في امرأة قبلًا، مع معرفتي بالعديد من النساء من مختلف الجنسيات والقارات.. لاحظت ارتجاف شفتيها، وارتعاش يديها وهي تجلس على الكرسي الذي قدمه لها هولمز، وهنا انطلق ما بداخلها من مشاعر مرهقة واضطراب داخلي فطغت على صفحة وجهها.. قالت:

– لقد جئتك اليوم يا سيد هولمز لأنك قدمت مساعدة كبيرة لمخدومتي مدام «سيسيل فوريستر» في كشف غموض مشكلة أسرية، وقد انبهرت بلطفك ومهارتك.

تفكر هولمز لوهلة قبل أن يقول:

– مدام «سيسيل فوريستر»؟ أظنني قد أسديتها خدمة بسيطة حقًّا منذ فترة، لكن على ما أذكر أنها كانت قضية سهلة.

– هي لا تشاركك الرأي، وعلى أي حال فلن تتمكن من وصف مشكلتي بتلك البساطة مثلها.. أعتقد أنه لا يوجد ما هو أغرب، وأعقد من الموقف الذي أجد نفسي فيه الآن.

فرك هولمز يديه معًا وقد لمعت عيناه، قبل أن يميل للأمام في مقعده الوثير، وقد بدت على ملامحه الحادة –التي تشابه ملامح الصقر– علامات التركيز والاهتمام، ثم قال بنبرة عملية جادة:

– أخبريني بتفاصيل مشكلتك!

شعرت بأن موقفي صار مُحرجًا، فنهضت من مقعدي ناويًا الرحيل، وأنا أقول:

– عن إذنكما...

لكنني فوجئت بالسيدة الشابة ترفع يدها التي يغطيها القفاز، لتمنعني من الرحيل، وقالت:

– لو تفضل صديقك بالبقاء يا سيد هولمز فإنه سيكون قد أسداني خدمة كبيرة.

وهكذا عدت لمقعدي من جديد، بينما استطردت الشابة تقول:

– سأحاول أن أختصر بقدر ما أستطيع.. كان والدي ضابطًا في كتيبة بالهند، وقام بإعادتي للوطن عندما كنت طفلة صغيرة.. لم تكن والدتي حية وقتها، ولم يكن لنا أي أقارب أحياء في إنجلترا؛ ومن ثمَّ التحقت بمدرسة داخلية مريحة في «إدنبرة»، وقد ظللت فيها حتى بلغت عامي السابع عشر.. وفي عام 1878 حصل والدي – الذي ترقى ليصبح عميدًا بفرقته –على إجازة مدتها عام كامل، وعاد للوطن.. قام بإرسال برقية إليَّ من لندن يخبرني أنه قد وصل بسلام، ويطلب مني اللحاق به في أسرع وقت، وأعطاني عنوانه بفندق «لانجهام».. على حد ما أتذكر، فقد كانت برقيته مليئة بالحنان والعطف.. عندما وصلت إلى لندن استقللت سيارة لفندق «لانجهام» هذا، فأخبروني أن النقيب «موريستان» كان نزيلًا بالفندق حقًّا، لكنه خرج ليلة أمس ولم يعد. انتظرت عودته طيلة اليوم دون فائدة. نصحني مدير الفندق بالتواصل مع الشرطة، وفي اليوم التالي وضعنا إعلانًا في جميع الجرائد.. ولكن من المؤسف أنه لم تظهر أي نتائج، ولا حتى من التحقيقات التي أُجريت، ولم أسمع أي أخبار عن والدي منكود الحظ من يومها.. عاد للوطن بقلب يمتلئ بالأمل، باحثًا عن بعض السكينة والأمان والراحة، لكن بدلًا من هذا.....

وبترت المسكينة عبارتها وهي تضع يدها على فمها، بينما تساقطت دموعها.. هنا فتح هولمز دفتر ملاحظاته وهو يسألها:

– متى حدثت تلك الواقعة؟

– اختفى يوم 3 ديسمبر 1878، منذ عشرة أعوام تقريبًا.

– وماذا حدث لأمتعته؟

– ظلت بالفندق، ولم يكن فيها أي دليل من أي نوع.. كل ما كان فيها هو بعض الملابس، وبعض الكتب، وعدد من التُّحف النادرة التي جلبها معه من جزر «آندمان»؛ لأنه كان أحد الضباط المسؤولين عن حراسة السجن الموجود هناك..

– وهل كان له أي أصدقاء هنا؟

– الصديق الوحيد الذي أعرفه يُدعى الرائد «شولتو»، كان زميله بكتيبة المشاة الرابعة والثلاثين في «بومباي».. وقد تقاعد هذا الرائد منذ فترة قصيرة، وعاش في منطقة «نوروود» الشمالية.. تواصلنا معه وقتها بالتأكيد، لكنه لم يكن يعرف بعودة أبي لإنجلترا من الأساس..

علق هولمز وهو يفكر:

– قضية غريبة بالفعل..

– لم أصل بعد للجزء الأغرب! منذ ست سنوات تقريبًا، وبالتحديد في 4 مايو 1882، نُشِر إعلان بجريدة «التايمز» يسأل عن عنوان الآنسة «ماري موريستان»، ويقول إن مصلحتها تقتضي الرد على هذا الإعلان، لكن لم يكن هناك أي اسم، أو عنوان ملحق بالإعلان المريب.. كنت وقتها قد التحقت بالخدمة لدى عائلة مدام «سيسيل فوريستر»، وبدأت العمل لديها مربية.. نصحتني السيدة سيسيل بأن أنشر عنواني في عمود الإعلانات، وفي نفس اليوم وصلني بالبريد صندوق صغير من الورق المقوى، وقد وُضع عليه اسمي، وعندما فتحته وجدت بداخله لؤلؤة ضخمة شديدة اللمعان والجمال، ولم يكن معها أي كلمة! ومنذ وقتها كان يصلني بنفس الموعد في كل عام صندوق شبيه، تقبع بداخله لؤلؤة شبيهة

بها، وفي كل مرة لا يوجد أقل دليل عن هوية مُرسلها.. وقد أكَّد لي خبير أن تلك اللآلئ من نوع نادر غالي الثمن.. تأملا جمالها بنفسيكما.

وأتبعت جملتها بأن فتحت صندوقًا مسطحًا رقدَتْ داخله ستٌّ من أجمل اللآلئ التي رأيتها في حياتي!

علق «شيرلوك هولمز»:

– هذا مثير جدًّا للاهتمام.. هل حدث أي شيء آخر؟

– نعم، اليوم! ولهذا السبب بالتحديد أتيتك يا سيد هولمز! لقد تسلمت هذا الخطاب الغريب و.... ربما من الأفضل لو تقرأه بنفسك.

وأتبعت جملتها هذه المرة بتقديم ورقة، فتناولها هولمز شاكرًا وقال:

– شكرًا لكِ، أريد المظروف نفسه كذلك من فضلك.. هممم.. ختم البريد يوضح أنه مُرسل من لندن، «س.و.»، بتاريخ 7 من يوليو.. حسنًا.. توجد بصمة شخص على الجانب، وهي غالبًا تعود لساعي البريد نفسه.. الورق من نوعية فاخرة، المجموعة من هذا المظروف تُباع بنصف شلن.. يبدو لي أنه رجل ذو ذوق رفيع فيما يتعلق بالأدوات المكتبية.. لا يوجد عنوان بالتأكيد.. (انتظري عند ثالث عمود من جهة اليسار خارج مسرح «الليسيوم» في تمام السابعة مساءً، ولو كنت تشعرين بالريبة، فبوسعك اصطحاب صديق أو اثنين معك.. أنتِ سيدة مظلومة، وأريد أن أعيد لكِ حقك.. المهم ألا تخبري الشرطة، وإلا فسيذهب كل هذا هباءً!

صديقك المجهول)

– هذا مريب وغامض.. وماذا تنوين يا آنسة «موريستان»؟

– هذا ما جئتك لتساعدني فيه.

– إذن فأنا أرى أن نذهب بالتأكيد.. أنا، وأنتِ، ومعنا الدكتور واتسون، فهو الرجل المناسب لهذه المهمة؛ فقد قال مُرسل الخطاب إن بوسعك إحضار صديقين، وقد عملت أنا وهو معًا من قبل، ونفهم بعضنا جيدًا.

– لكن هل سيتفضل هو بالموافقة على المجيء معنا؟

سألَت الشابة بتردد وقد بدا في لهجتها الرجاء أن أوافق، فقلت بحماس:

– بالتأكيد.. يسعدني تقديم المساعدة في أي وقت.

– أنتما لطيفان للغاية.. لقد عشت حياة منعزلة، وليس لدي أصدقاء يمكن أن ألجأ إليهم في المواقف المشابهة.. هل سيكون مناسبًا لو حضرت هنا في السادسة مساءً لنلحق بالموعد؟

أومأ لها هولمز برأسه مجيبًا:

– لكن يجب ألا تتأخري عن هذا الموعد.. وهناك نقطة أخيرة أرغب بسؤالك عنها: هل خط اليد الذي كتب الخطاب الذي أتاك اليوم هو نفس الخط الموجود على علب اللآلئ؟

– لقد أحضرتها معي، صبرًا.

قالتها وهي تمد يدها في حقيبتها، لتخرج بست ورقات ناولتها له، فقال:

- أنتِ عميلة ممتازة، وحدسك سليم.. فلنرَ الآن..

قام بوضع الأوراق بجوار بعضها بعضًا على المنضدة وأخذ يتجول بنظره بينها قبل أن يقول:

- هذا خط يد يحاول صاحبه إخفاء هويته لسببٍ ما، لكن لا شك لدي بأن شخصًا واحدًا هو مَن كتبهم.. أتريان كيف يكتب حرف الياء بتلك الطريقة المميزة؟ وماذا عن الطريقة التي يلتف بها حرف السين؟ لقد كتبها نفس الشخص بكل تأكيد.. لا أرغب في منحك أملًا زائفًا يا آنسة «موريستان»، لكن هل يوجد أي تشابه بين هذا الخط، وخط والدك؟

- لا، لا يوجد أي تشابه بينهما على الإطلاق.

- توقعت إجابتك هذه.. سنكون بانتظارك إذن في السادسة مساءً.. أرجو أن تسمحي لي بالاحتفاظ بتلك الأوراق، فقد أحتاج لدراستها أكثر حتى يحين موعدنا؛ والساعة الآن الثالثة والنصف عصرًا، إلى اللقاء قريبًا..

- إلى اللقاء.

قالتها زائرتنا الشابة وهي تنظر نحونا بود، قبل أن تعيد صندوق اللآلئ لجيبها، ثم تخرج مسرعة من الحجرة.. اتجهت نحو النافذة فوقفت وراءها أنظر إلى الشارع، ولمحتها وهي تبتعد بنفس الخطوات السريعة، حتى صارت قبعتها الرمادية ذات الريش الأبيض مجرد بقعة صغيرة لم تلبث أن ذابت وسط الزحام.. التفت نحو رفيقي هاتفًا:

- يا لها من امرأة جذابة!

فوجدته قد قام بإشعال غليونه من جديد، وتراجع للخلف مرخيًا جفنيه، وقال بفتور:

- حقًّا؟ لم ألحظ هذا على الإطلاق.

هتفت به:

- يا لك من إنسان متحجر القلب! هناك جزء غير آدمي فيك أراه أحيانًا.

ابتسم مجيبًا:

- من المهم للمرء ألا يسمح لنفسه أن يتحيز في حكمه على الأشياء بسبب بعض الأمور الشخصية.. العميل عندي ليس إلا مجرد وحدة أو عنصر من عناصر القضية.. أما السماح للمشاعر بالتدخل في الأمر فلن ينتج عنه إلا تقييد التفكير المنطقي.. دعني أخبرك يا عزيزي أن أكثر امرأة جذابة قابلتها في حياتي قد أُعدمت بتهمة تسميم ثلاثة أطفال، للاستيلاء على مبلغ التأمين على حياتهم، بينما أكثر رجل من بين معارفي قبحًا اتضح أنه رجل خير أنفق ما يقرب من ربع مليون جنيه إسترليني على الفقراء..

- لكن في حالتنا هذه....

- أنا لا أقبل الاستثناءات، لأن الاستثناء يُبطل القاعدة.. المهم الآن، هل واتتك الفرصة من قبل لدراسة شخصية أحدهم من خلال خط يده؟ ما الذي تستنتجه عن صاحب هذا الخط؟

أجبته:

– هممم.. خطه مقروء ومنظم، فلا بد أنه رجل عملي ذو شخصية قوية.

لكن هولمز هزَّ رأسه نافيًا وقال:

– انظر لتلك الحروف.. أما طريقة كتابته للحروف الكبيرة تدل على مدى ثقته بنفسه.. لسوف أخرج الآن، لأنني أريد التأكد من بعض الأمور.. اسمح لي أن أرشح لك هذا الكتاب، هو أحد أهم الكتب، اسمه «استشهاد الإنسان»، وكاتبه يُدعى «وينوود ريد»، وسوف أعود بعد ساعة..

****

جلست أمام النافذة ممسكًا الكتاب بين يديَّ، لكن أفكاري ظلت خيولًا جامحة، سرحت بعقلي بعيدًا عن تنبؤات، وأفكار الكتاب الجامحة، فتذكرت زائرتنا الشابة، وابتسامتها الساحرة، ونبرة صوتها العميقة الدافئة، واللغز الضخم الذي سيطر على حياتها..

لو افترضنا أن عمرها كان السابعة عشرة تقريبًا وقت اختفاء أبيها، فلا بد أنها في السابعة والعشرين الآن، وهو عمر جيد، يفقد فيه المرء غروره، ويكون قد مر بالكثير من التجارب التي أكسبته بعض الرصانة..

جلست سارحًا في أفكاري تلك، حتى خطرت ببالي العديد من الأفكار الخطرة التي جعلتني أنتفض فزعًا، قبل أن أقوم متجهًا نحو مكتبي، فانشغلت بشدة في قراءة آخر أطروحة عن علم الأمراض.. فبعد كل شيء، أنا مجرد جراح بائس في الجيش، ذو ساق ضعيفة، ورصيد بنكي أضعف، لا يمثل مبلغًا محترمًا، فمن أين لي بتلك الثقة للتفكير في تلك الأمور؟ كما قال هولمز، هي مجرد وحدة، أو عنصر من عناصر القضية.. وإذا كان مستقبلي مظلمًا، فالواجب عليَّ أن أواجهه كالرجال، لا أن أسمح بتلك الأحلام التي لا تتعدى كونها بريقًا كاذبًا من وحي الخيال!

****

الفصل الثالث

بحثًا عن حل

في الخامسة والنصف عاد هولمز مفعمًا بالسعادة والحماس، وقد ارتفعت روحه المعنوية كثيرًا، وهي الحالة التي تتبادل عليه مع نوبات الاكتئاب الشديدة التي تهاجمه بكل شراسة.. تناول كوب الشاي الذي أعددته له شاكرًا قبل أن يقول:

– الموضوع لا يُمثل لغزًا صعبًا؛ فالحقائق المتوفرة لا ترجح إلا كفة احتمال واحد فقط.

– ماذا؟! أتريد أن تقول إنك قد حللت القضية حقًّا؟

– لو قلت هذا لكنت أبالغ.. كل ما أقصده أنني اكتشفت نقطة مهمة للغاية، مع أن التفاصيل لم تنكشف كلها لي بعد.. عندما عدت لأرشيف صحيفة «التايمز» اكتشفت أن الرائد «شولتو» الذي كان يعيش في «نورورود» الشمالية، والذي تقاعد من عمله بكتيبة المشاة الرابعة والثلاثين ببومباي، قد مات في 28 أبريل 1882.

– معذرة لو كنت غبيًا، لكنني لا أرى علاقة لتلك النقطة بما نحن فيه.

– حقًّا؟ لقد فاجأتني! فلتنظر للموضوع من زاوية أخرى إذن، لقد اختفى النقيب «موريستان» فجأة بلا أثر، والشخص الوحيد الذي كان بإمكانه زيارته في «لندن» هو الرائد «شولتو»، لكن هذا الأخير ينفي أي معرفة له بقدوم صديقه من الأساس.. بعد ذلك بأربعة أعوام حدث أن مات «شولتو»، وخلال أسبوع من وفاته تتلقى ابنة النقيب «موريستان» هدية ثمينة لا تلبث أن تتكرر كل عام في نفس الموعد، وفي النهاية يصلها هذا الخطاب الذي يخبرها أنها كانت مظلومة.. ما نوع الظلم الذي يمكن أن يقصده كاتب الخطاب إن لم يكن يقصد سلبها وجود والدها؟ ولماذا بدأت تلك الهدية بالظهور بعد وفاة «شولتو» مباشرة؟ ألا يوحي هذا بأن وريث «شولتو» يعلم شيئًا ما عن لغز اختفاء «موريستان» الغامض ولديه رغبة في تعويضها؟ ألديك نظرية أخرى تتفق مع تلك الحقائق؟

– لكنه تعويض غريب! كما أن طريقة تنفيذه أكثر غرابة.. ولماذا قام بكتابة الخطاب الآن، بعد مرور ست سنوات كاملة؟ وشيء آخر، لقد ذكر في ذلك الخطاب كونها تعرضت للظلم، وعن تحقيق العدالة لها.. أي عدالة يمكن أن تتحقق لمن هي في مثل هذا الموقف؟ من الصعب تصور أن والدها لا يزال حيًّا من الأصل بعد مرور كل هذا الوقت على اختفائه.. وأنت تعلم أنها لم تتعرض لظلم من نوع آخر غير هذا، أليس كذلك؟

استغرق هولمز في التفكير وهو يقول:

– بالتأكيد هناك بعض الصعوبات، لكن المفترض أن رحلتنا الاستكشافية هذه الليلة ستزيلها كلها.. ها قد جاءت العربة وبداخلها الآنسة «موريستان».. هل أنت جاهز؟ هيا بنا إذن لننزل، فقد تأخرنا..

التقطت قبعتي وأثقل عصا لديَّ، ولاحظت أن هولمز قد أخذ مسدسه من درج المكتب فوضعه في جيبه.. واضح أنه يعتقد أن المهمة التي سنقوم بها قد تكون على جانب كبير من الخطورة!

وجدنا الآنسة «موريستان» بانتظارنا بالأسفل، وقد ارتدت معطفًا فضفاضًا داكن اللون، وبدا وجهها الرقيق متماسكًا على ما اعتراه من شحوب؛ يجب أن تكون امرأة خارقة لو لم ينتابها بعض التوتر بسبب تلك الرحلة الليلية الغريبة التي سنقوم بها، لكنني أعترف أنها كانت تتمتع بمستوى عالٍ من ضبط النفس. أجابت على الفور على بعض الأسئلة التي ألقاها هولمز عليها؛ بغية توضيح بعض النقاط.. قالت:

– كان الرائد «شولتو» أقرب أصدقاء أبي، فكثيرًا ما ذكره والدي في خطاباته لي، كان هو وأبي يقومان بقيادة القوات في جزر «آندمان»، لذلك مرا بالعديد من الصعوبات والمخاطر معًا.. وبالمناسبة، لقد عُثر على ورقة غريبة في مكتب أبي، لكن لم يفهم أحد أي شيء مما هو مكتوب عليها.. لا أظنها ذات أهمية لموضوعنا، لكنني فكرت في أنك ربما تحب إلقاء نظرة عليها، فأحضرتها معي.. ها هي ذي..

أمسك هولمز الورقة بحرص، ثم فردها على ركبته ببطء، قبل أن يتفحصها بعناية بعدسته المكبرة.. ثم علق قائلًا:

– هذه الورقة مصنوعة في الهند، وقد ظلت مُعلقة بدبوس على لوح ما لبعض الوقت.. تبدو وكأنها خريطة لجزء من مبنى ضخم به الكثير من الممرات والردهات والأروقة، وهناك نقطة معينة عليها إشارة عن صليب صغير مرسوم بالحبر الأحمر، وقد كُتب فوقها بقلم رصاص باهت: «3.37 من جهة اليسار».. أما بالطرف الأيسر من الورقة فيوجد رمز غريب صَعب التمييز.. يشبه أربعة صلبان على خط واحد وقد تلامست أطرافها معًا، وبجوار ذلك الرمز كُتب بحروف حادة وسميكة للغاية: (علامة الأربعة – «جوناثان سمول»، و«محمد سينج»، و«عبد الله خان»، و«دوست أكبر»). أعتقد أنك محقة في كونها ليست ذات صلة بموضوعنا، لكن واضح أنها ورقة مهمة للغاية، فلا بد أنها قد حُفظت بعناية داخل كتاب أو ما شابه، لأن جوانب الورقة على نفس الدرجة من النظافة..

– لقد وجدناها داخل مفكرة جيبه حقًّا!

– أقترح أن تحفظيها بعناية يا آنسة «موريستان»، فقد يتضح فيما بعد أنها ذات أهمية لنا، فقد بدأت أشك في كون الموضوع أكثر غموضًا وتعقيدًا مما ظننته في البداية، ويبدو أني سأضطر لإعادة النظر في أفكاري..

وأتبع عبارته بأن استرخى في مقعده بالعربة، وفهمت من حاجبيه المعقودين، ونظراته الشاردة أنه مستغرق في التفكير.. تجاذبت أطراف الحديث مع رفيقتنا الآنسة «موريستان» عن رحلتنا الحالية وما نتوقعه من نتائج لها، لكن هولمز ظل صامتًا تمامًا حتى انتهت رحلتنا.

كان مساء أحد أيام شهر سبتمبر، ولم تكن الساعة قد بلغت السابعة مساءً بعد، لكنه كان يومًا كئيبًا، بسطَ فيه الضباب سيطرته على مدينة لندن، لا يشاركه غير بعض المطر الخفيف.. أخذت السحب الداكنة بنية اللون تذرف دموعها في حزن في صورة أمطار تهاطلت فوق الشوارع الموحلة، بينما بدت مصابيح الشارع الموجودة بشارع «ستراند» مجرد بقع ضوء باهتة تُلقي بضوئها الخافت على الأرصفة،

وقد تسلل الوهج الأصفر المنبعث من واجهات المحلات عبر الهواء الضبابي المعبأ بالرطوبة، ليلقي بشعاعه المتحرك القاتم على الشارع الرئيسِ المزدحم.. رأيت في ذلك القطار اللانهائي من الوجوه المتدفقة تحت أشعة الضوء الخافت شيئًا مُقبضًا وموحشًا؛ وجوه حزينة، تجاورها وجوه أخرى سعيدة، ووجوه عابسة بجانب أخرى فرحة.

وكعادة الجنس البشرى كله، كانت الوجوه تنتقل بسرعة من الظلام للضوء، قبل أن تعود للظلام مرة أخرى.. في العادة لا أتأثر بمثل تلك الانطباعات، لكن مناخ ذلك المساء الحزين الكئيب تعاون مع تلك المهمة الغريبة التي خرجنا لها، فجعلاني أشعر بالكآبة والتوتر، ومن مظهر رفيقتنا الآنسة «موريستان»، عرفت أنها على الأرجح تشاركني نفس الأفكار.. هولمز فقط هو من كان منيعًا ضد السقوط فريسة لمثل تلك المكدرات التافهة؛ فقد وضع دفتر ملاحظاته المفتوح فوق ركبتيه، وكان من حين لآخر يكتب فيه بعض الكلمات والملاحظات على هُدى ضوء مصباح جيبه...

كانت هناك الكثير من الحشود أمام مسرح «الليسيوم» عندما وصلنا عند المداخل الجانبية، بينما توافد سيل منهمر من العربات عند مدخله الأمامي، وقد أخذت تتسابق في إنزال حمولتها من الرجال ببدلاتهم الأنيقة والنساء بشالاتهن ومجوهراتهن الثمينة.. بمجرد أن وصلنا إلى العمود الثالث، حيث من المفترض أن يكون اللقاء، حتى اقترب منا رجل أسمر ضئيل الجسد خفيف الحركة، يرتدي ثياب سائق عربة.. وسألنا:

– هل أنتما من أتيتما لمصاحبة الآنسة «موريستان»؟

قالت الشابة:

– أنا الآنسة «موريستان»، وهذان السيدان صديقان لي.

تفحصنا الرجل الضئيل بنظراته لثوانٍ، قبل أن يسأل الشابة بصرامة:

– معذرة يا آنستي، لكن أريدك أن تعطيني كلمتك بأن رفيقيكِ ليسا من رجال الشرطة.

– أؤكد لك هذا.

هكذا أجابته بثقة، فأطلق صفيرًا عاليًا أحضر بعده صبيًّا من صبيان الشوارع عربة تجرها الخيل، وفتح لنا بابها.. ركب الرجل الضئيل مكان السائق، بينما اتخذنا أماكننا داخل الجزء المخصص للركاب.. وبمجرد جلوسنا ألهب السائق ظهر جياده بالسوط، فانطلقت العربة بنا تشق الطريق بسرعة عبر الشوارع الضبابية..

لَكَم كان موقفًا مريبًا، فقد انطلقنا إلى مكان مجهول بالكامل، في مهمة مجهولة كذلك!

إما أن تكون خدعة –وهو افتراض غير محتمل– وإما أن هناك الكثير من الأشياء المهمة المُعلقة برحلتنا هذه.. تأملتُ رفيقتنا في الرحلة، فوجدتُ أقصى درجات التماسك والحزم قد ارتسمت على صفحة وجهها.. حاولت الترفيه عنها وتسليتها بأن أحكي لها بعض المقتطفات من مغامراتي بأفغانستان، لكن قصصي خرجت مشوشة باهتة، لأنني أنا نفسي كنت مشغول البال بما ينتظرنا.. والواقع أنها حتى يومنا هذا تقول إنني في ذلك اليوم تلوت عليها قصة غريبة مضطربة عن بندقية

دخلت خيمتي وسط ظلام الليل، وكيف أطلقت عليها النار من نمر صغير ذي ماسورة مزدوجة، وإن كان من المفترض أن ما حدث هو العكس!

في أول رحلتنا كانت لدي فكرة عن الاتجاه الذي نسير فيه، لكنني سرعان ما فقدت شعوري بالاتجاهات بسبب سرعة العربة والضباب المحيط بنا من كل ناحية، ومعرفتي الشحيحة بشوارع مدينة لندن، ولم أعد أشعر إلا بأننا قد سرنا لمسافة طويلة..

وبينما كانت العربة تتحرك بسرعة تقطع الميادين والشوارع الجانبية كان «شيرلوك هولمز» على الجانب الآخر، يذكر أسماء ما نمرُّ به من أماكن ولم يخطئ ولو لمرة واحدة، قائلًا:

– هذا شارع «روشستر»، وهذا ميدان «فينسنت»، والآن قد وصلنا لطريق جسر «فوكسهوول»، ويبدو أننا نعبر الآن إلى الجانب السوري من النهر.. أجل، كما ظننت، ها نحن الآن فوق الجسر، ويمكنكما أن تلمحا النهر من نافذة العربة.

ألقينا نظرة خاطفة لنهر «التايمز» ومصابيح الإنارة التي التمع ضوؤها على سطحه الداكن الشاسع، واستمرت عربتنا في طريقها بنفس السرعة، قبل أن تدخل في شبكة متداخلة من الشوارع على الجانب الآخر من النهر.. قال هولمز:

– هذا طريق «ووردسورث»، وهذا طريق «برايوري»، أما هذه فهي جادة «لارك هول»، ثم «ستوكويل بليس»، ثم شارع «روبرت»، وجادة «كولد هاربور».. يبدو لي أن قضيتنا هذه المرة لن تصحبنا لأماكن راقية مع الأسف.

كنا قد وصلنا في تلك اللحظة لحي مريب مهجور، اصطفت فيه مجموعة من المنازل الكئيبة المبنية بالطوب، ذات اللون الرمادي، فلم يكسر كآبتها إلا الأضواء الساطعة والألوان الزاهية للحانات التي احتلت ناصية الشارع.. بعد هذا اصطفت مجموعة من الفيلات ذات الطابقين، وأمام كل فيلا منها كانت هناك حديقة صغيرة، ثم انتصبت صفوف من المباني الجديدة المبنية بالطوب كأنها مخالب ضخمة يبرزها وحش المدينة نحو الريف..

في النهاية توقفت العربة أمام ثالث منزل في الصف الجديد الذي ظهر أمامنا من البيوت، ولم يبدُ أي منزل من المنازل المجاورة مسكونًا..

كان المنزل الذي توقفنا أمامه مظلمًا مثله مثل ما يحيط به من منازل، باستثناء ضوء انبعث من نافذة المطبخ.. عندما ارتفعت طرقاتنا، انفتح الباب مباشرة، ليظهر من خلفه خادم هندوسي يرتدي عمامة صفراء، وثوبًا أبيض فضفاضًا، ووشاحًا أصفر على خصره.. كان هناك تناقضًا غريبًا في منظر ذلك الرجل الشرقي الذي وقف عند باب منزل سكني عادي من الدرجة الثالثة في تلك الضواحي الشعبية.. قال الرجل الهندوسي:

– السيد ينتظركم..

وقبل أن ينهي جملته ارتفع صوت حاد من إحدى الحجرات الداخلية يقول:

– أدخلهم على الفور أيها الخادم.. هيا!

❊❊❊❊

الفصل الرابع

حكاية الرجل الأصلع

سرنا وراء الرجل الهندوسي عبر ممر قذر ضيق، ذي إضاءة رديئة، وأثاث أردأ، حتى وصلنا في النهاية إلى باب على اليمين، ففتحه لنا..

غمرنا ضوء أصفر لامع، وبوسط ذلك الضوء وقف رجل ضئيل الجسد ذو رأس مدبب، وقد أحاط برأسه طوق من الشعر الأحمر الخشن، بينما لمع جلد رأسه الأصلع في المنتصف كأنه قمة جبلية تبرز بين مجموعة من أشجار التنوب..

وقف الرجل وقد أطبق يديه معًا، بينما أخذت تعبيرات وجهه تتبدل باستمرار، فتارة يبتسم، وأخرى يتجهم، لكن دون أن تسترخي ملامحه للحظة واحدة.. تدلت شفته السفلى كاشفة عن صف من الأسنان الصفراء غير المتناسقة، والتي سعى لإخفائها معظم الوقت عن طريق تمرير يده على الجزء السفلي من وجهه طيلة الوقت.. ولكنه مع صلعته الواضحة تلك، كان منظره يوحي بصغر سنه.. كأنه أتم عامه الثلاثين للتو.. أخذ يكرر بصوت مرتفع وبنبرة حادة:

– مرحبًا بكِ آنسة «موريستان».. مرحبًا بكما أيها السيدان.. تفضلوا بالدخول لصومعتي المتواضعة.. صحيح أنه مكان بسيط، لكنني قمت بتأثيثه على ذوقي، وأعتبره واحة للفن وسط صحراء منطقة جنوب لندن المُقفرة التي تحيط بنا..

والواقع أننا اندهشنا عندما دخلنا، فبداخل ذلك البيت المتواضع، بدت شقته تلك كأنها ألماسة من أفخر الأنواع، وُضعت داخل إطار من النحاس.. تدلت من الجدران أفخر أنواع الستائر والمنسوجات الجدارية، وأشدها بهرجة، وقد انحسرت في أكثر من موضع، لتظهر من ورائها بعض اللوحات الفنية المعلقة بأناقة، أو لتطل من ورائها مزهرية شرقية الأصل.. امتدت على الأرضية سجادة لونها مزيج بين الكهرماني والأسود، بدت شديدة النعومة والكثافة، لدرجة أن أقدامنا غاصت فيها كأنها تغوص في رُقعة من الطحالب، وافترشت قطعتين من جلد النمر الأرض، ووضِعت أرجيلة ضخمة فوق البساط بركن الغرفة، فزاد كل هذا من طابع المكان الشرقي..

تدلى مصباح على شكل حمامة فضية من حبل ذهبي يكاد يكون غير مرئي بمنتصف الغرفة.. توهج المصباح وهو يبث في الهواء رائحة عطر قوية.. تململ الرجل الضئيل في مكانه مبتسمًا وهو يقول:

– أنا أُدعى «ثاديوس شولتو»، ولا بد أنك الآنسة «موريستان»، وهذان السيدان هما....

– هذا هو السيد «شيرلوك هولمز»، وهذا هو الدكتور واتسون..

وهنا هتف الرجل بحماس فجأة:

– دكتور؟ عظيم! أمعك سماعة طبية؟ هل يمكنك الكشف عليَّ؟ أنا شديد القلق بخصوص حالة صمام قلبي التاجي.. لست قلقًا بخصوص الصمام الأورطي، لكنني سأكون شديد الامتنان لو عرفت

رأيك في الصمام التاجي.

استمعت لقلبه كما طلب، دون أن أجد به أي مشكلة، باستثناء أنه كان يمر بأقوى درجات الخوف، فقد أخذ جسده كله يرتجف.. قلت له:

– لا داعي للقلق، فهو يبدو طبيعيًّا.

علق مجيبًا وهو يبتسم:

– اغفري لي توتري يا آنسة «موريستان»، فأنا شخص معتل الصحة، وتنتابني الكثير من الشكوك منذ مدة طويلة بخصوص ذلك الصمام بالذات، وأنا سعيد لمعرفة أنه ليس هناك سبب للخوف.. لو كان والدك يا آنسة «موريستان» تفادى تعريض قلبه للإجهاد، لكان قد بقي على قيد الحياة بيننا حتى الآن!

كدت أصفعه على وجهه، لما أثارته ملحوظته السخيفة والخالية من الذوق من حنق داخلي، بينما جلست الآنسة «موريستان» وقد امتقع وجهها بالكامل، قبل أن تقول:

– كان هناك هاتف بداخلي يقول إنه مات!

قال الرجل الضئيل مجيبًا:

– سوف أطلعك على كل ما حدث بالتفصيل، بل وبوسعي أن أرُد لك ما سُلِب من حقك، وهذا هو ما أنوي فعله أيًا كان رأي شقيقي «بارثيلوميو».. لَكَم أنا ممتنٌ لقدوم صديقيكِ معك، ليس لمرافقتك فقط، وإنما ليشهدا أيضًا على ما سأقوله وأفعله.. بوسع ثلاثتنا أن نشكل جبهة قوية تقف بوجه شقيقي «بارثيلوميو»! لكن يجب ألا نُقحم أحدًا بيننا، لا الشرطة، ولا السلطات الرسمية، وبوسعنا تصفية الأمور كلها بيننا بطريقة تُرضي الجميع دون تدخل أحد.. لأن أكثر شيء يكرهه أخي هو التشهير.

جلس الرجل على أريكة منخفضة وأخذ ينظر نحونا وقد أطل التساؤل من عينيه الزرقاوين الواهنتين.. قال له هولمز:

– سيظل كل ما يُقال هنا سرًّا لن أفشيه.

أما أنا فأومأت برأسي دلالة على موافقتي على كلام رفيقي، وهنا قال الرجل الضئيل:

– عظيم! هل ترغبين في كأس نبيذ «شيانتي» يا آنسة «موريستان»؟ أم تفضلين نبيذ «توكاي»؟ يا للأسف ليس لدي أنواع أخرى من النبيذ.. هل أفتح زجاجة؟ لا؟ حسنًا.. آمل ألا تمانعي لو قمت بتدخين بعض التبغ.. رائحته خفيفة فلا تقلقي.. هو مجرد تبغ شرقي، فأنا متوتر قليلًا، ولا شيء يهدئ أعصابي مثل تدخين الأرجيلة لبعض الوقت.

أشعل إناء الأرجيلة الكبير، وسرعان ما امتزج الدخان بماء الورد بسلاسة مصدرًا بعض الفقاعات، بينما جلس ثلاثتنا على شكل نصف دائرة، وقد مدَّ كل واحد منا رأسه للأمام، وأسند ذقنه على يديه، في حين جلس مضيفنا الضئيل ذو الرأس المدبب اللامع وتعبيرات الوجه المتغيرة، يُنفث دخان أرجيلته بتوتر في المنتصف.

بادرنا الرجل بالقول:

- كان من السهل أن أعطيك عنواني عندما قررت أن أراسلك في البداية، لكنني خفت أن تتجاهلي طلبي فتجلبي معك أشخاصًا عنيفين؛ لهذا قررت ترتيب حدوث الموعد ترتيبًا يجعل مساعدي «ويليامز» يتمكن من رؤيتكم أولًا، لأنني أثق في حكمه على الأشياء بالكامل، وأمرته ألا ينفذ الخطة لو وجد ما يريب.. أرجو أن تعذروني لقيامي بتلك الاحتياطات، لكنني رجل أقدس العزلة، ولا يزعجني شيء قدر وجود رجال الشرطة؛ لدي نفور طبيعي من كل صور المادية الخشنة، ونادرًا ما أختلط بالحشود الفظة، فأنا كما ترون رجل ذو ذوق رفيع، أعيش وسط جو من الرقي، وأعدُّ نفسي راعيًا للفنون؛ فهي نقطة ضعفي.. هذه اللوحة مثلًا التي تمثل مشهدًا طبيعيًّا هي لوحة أصلية للفنان «كورو»، وإن كان هناك خبير قد قام بالتشكيك في أصالة لوحة «سلفادور روزا» هذه، فإنه لا أحد يجرؤ على التشكيك في لوحة «بوجيرو» هذه.. وأنا من المتحيزين للمدرسة الفرنسية المعاصرة في الفن.

قالت الآنسة «موريستان» بدبلوماسية:

- معذرة يا سيد «شولتو»، لكنني جئتك هنا بناءً على طلبك لسماع ما تريد إخباري به، والوقت تأخر للغاية، وأريد إنهاء تلك المقابلة في أقصر وقت ممكن.

- ستستغرق بعض الوقت على كل حال، لأننا سنحتاج بالتأكيد للذهاب إلى «نوروود» لنقابل شقيقي «بارثيلوميو».. يجب أن نذهب كلنا؛ لنرى ما إن كان بوسعنا التغلب عليه.. هو غاضب مني للغاية؛ لأنني تصرفت بالطريقة التي أراها صحيحة، وقد تشاجرنا معًا بالأمس.. لا تتصورون كيف يصبح شخصًا شنيعًا عندما يغضب!

قلت بجرأة:

- لو كنا سنذهب لـ «نوروود» كما تقول، إذن يجب أن نتحرك على الفور!

وهنا انفجر مضيفنا ضاحكًا حتى احمرت أذناه وهو يهتف:

- لا يمكن هذا، فلا أعرف ردَّ فعله لو أخذتكم له بتلك الطريقة المفاجئة.. لا، يجب أن أطلعكم أولًا على العديد من النقاط لتفهموا كل تفاصيل الحكاية قبل ذهابنا له.. تعرفون أن والدي هو الرائد «جون شولتو» بالطبع كما ولا بد أنكم خمنتم، وكان أحد ضباط الجيش السابقين في الهند، وقد تقاعد من منصبه منذ إحدى عشرة سنة تقريبًا، ثم أتى ليستقر بمنزل «بونديشتيري» في «نوروود» الشمالية.. تمكن من جمع ثروة ضخمة في الهند، وعاد بها لإنجلترا، وعاد كذلك بالعديد من التحف الثمينة، وطاقم خدم من السكان المحليين.. وبتلك الثروة تمكن من شراء بيت ضخم عاش فيه حياة شديدة الترف، وأنا وتوأمي «بارثيلوميو» ابناه الوحيدين..

أتذكر مدى تأثره باختفاء والدك النقيب «موريستان».. كنا قد قرأنا التفاصيل في الجرائد وقتها، ولأننا نعلم أنه كان من أصدقاء والدنا، فقد كنا نتناقش أحيانًا معه بخصوص ذلك الحادث.. كان يشترك معنا في محاولة تخمين ما يمكن أن يكون قد حدث له، لكننا لم نشك ولو للحظة واحدة بأنه يعرف أكثر مما نعرفه، وأنه دونًا عن الجميع يعرف مصير النقيب «موريستان»!

لكننا مع هذا كنا مدركين لوجود خطر مؤكد يهدد والدنا؛ لأنه صار يخاف الخروج بمفرده، وقام بتعيين حارسين شخصيين محترفين لحراسة منزل «بونديشتيري»، كان أحدهما هو «ويليامز»

الذي أحضركما الليلة؛ فقد كان بالماضي بطل إنجلترا في الوزن الخفيف.. لم يفصح أبي لنا قط عما يخفيه، لكنه كان يُكن كراهية شديدة للرجال ذوي السيقان الخشبية، ففي إحدى المرات قام بإطلاق النار على رجل ذي ساق خشبية، اتضح فيما بعد أنه مجرد تاجر غير مؤذٍ يقوم بتجميع الطلبات، واضطررنا وقتها لدفع مبلغ كبير من المال لعائلته للتكتم على الأمر.. اعتقدتُ أنا وشقيقي أنها مجرد نزوة عابرة لوالدنا، لكن ما تلا ذلك من أحداث غير وجهة نظرنا بالكامل.

تلقى والدي خطابًا من الهند ببداية عام 1882، وكان ذلك الخطاب صدمة كبيرة له، لدرجة أنه كاد أن يفقد وعيه على منضدة الإفطار بمجرد أن فتحه!

ومنذ ذلك اليوم أصيب بالمرض الذي لم يتركه حتى مات!

لم نعرف قط محتوى ذلك الخطاب، لكنني استطعتُ أن أراه من على بعدٍ وهو يمسكه، وعرفت أنه كان مختصرًا قليل الكلام، ومكتوب بخط سيئ.. ظل والدي يعاني من تضخم الطحال لسنوات، لكن حالته تدهورت بسرعة من وقتها! ومع حلول نهاية شهر أبريل يئسنا من شفائه، وقال إنه يرغب في التحدث معنا للمرة الأخيرة!

عندما دخلنا حجرته وجدناه يجلس وقد استند على بعض الوسائد، يتنفس بصعوبة بالغة.. طلب منا إغلاق الباب بإحكام وأن نجلس بجوار فراشه، ثم أمسك بيدينا، وتحدث بكلام صادم وصوته يقطر ألمًا وتأثرًا بطريقة لا تسمح بالشك في صدقه.. سأحاول أن أعيد عليكم نفس الكلام بالحرف..

(قال لنا يومها: «لا يوجد ما يشغل عقلي الآن إلا الطريقة التي تعاملت بها مع ابنة «موريستان» اليتيمة منكودة الحظ؛ فقد منعني جشعي في الماضي، وهو الخطيئة التي لازمتني طيلة عمري، من أن أعطيها نصيبها في الكنز الذي من حقها الحصول على نصفه على الأقل، ومع ذلك فإنني لم أستفد منه أنا نفسي؛ فلَكَم كنت غبيًّا جشعًا أعمى البصر والبصيرة.. تملكتني الرغبة في تملك الكنز الضخم، ولم أحتمل أن يشاركني فيه أحد.. أترايان ذلك التاج المُرصَّع باللآلئ بجوار قنينة الدواء؟ حتى هذا لم أتحمل فكرة فراقه، مع أنني أخرجته ناويًا إرساله لها.. أريدكما يا ولديَّ أن تقوما بإعطائها نصيبها العادل من كنز بلدة «آجرا»! لكن لا ترسلا لها أي شيء، ولا حتى هذا التاج، إلا بعد موتي، فعلى كل حال أنا قد رأيت العديد من الرجال الذين كانت حالتهم مثلي وأسوأ، ثم تماثلوا للشفاء.. الآن أريد أن أخبركما كيف مات صديقي «موريستان».. كان يعاني لسنوات عدة من ضعف في قلبه، لكنه أخفى تلك المعلومة عن الكل، باستثنائي!

وأثناء وجودنا في الهند، حصلنا بطريقة ما –وبعد سلسلة من الأحداث غير العادية– على كنز ضخم، قمت بإحضاره معي لإنجلترا.. وفي الليلة التي وصل فيها «موريستان» للوطن أتى إليَّ على الفور ليحصل على نصيبه منه.. قام بالمشي من المحطة حتى بيتي، وأدخله خادمي المخلص «لال شودر»، والذي مات فيما بعد..

اختلفنا أنا و«موريستان» في الرأي بخصوص نصيب كل واحد منا في الكنز، وللأسف احتدت بيننا المناقشة؛ وقام «موريستان» غاضبًا من مقعده، ووجدت فجأة ملامح وجهه تتقلص كمن

يعاني ألمًا مبرحًا، قبل أن يضغط بيده على صدره، وقد أسودَّ وجهه، ثم سقط أرضًا! لكنه قبل أن يسقط ارتطم رأسه بحافة صندوق الكنز المشؤوم بقوة، وعندما ملت فوقه لأرى ماذا به، وجدته ميتًا!

هلعت وقتها، وجلست شارد الذهن لفترة طويلة، لا أعرف ما يجب أن أقوم بفعله.. أول شيء خطر ببالي وقتها كان طلب المساعدة، لكنني لم ألبث أن فكرت في احتمالية أن يتم اتهامي بقتله؛ لأن وفاته حدثت أثناء شجارنا معًا، وكذلك الجرح الموجود برأسه سيؤخذ كقرينة ضدي!

بالإضافة لهذا، فلم أكن راغبًا في أن يكتشف أحد موضوع الكنز، الذي كنت حريصًا بشدة ألا يعلم بوجوده أحد.. لقد أخبرني «موريستان» قبلًا أنه لم يخبر أحدًا عن وجهته، ولم أجد داعيًا ليعرف أحد أبدًا!

كنت لا أزال أفكر في الموضوع محاولًا موازنة كافة الحلول، عندما نظرت لأعلى وجدت خادمي «لال شودر» واقفًا عند الباب.. دخل للغرفة وأغلق الباب من ورائه بهدوء قبل أن يقول:

- لا تخف يا سيدي، لن يعرف أحد بأنك قتلته.. فلنخفي جثته ولن يعرف أحد.

قلت له: «إنني لم أقتله»، فابتسم وهو يهز رأسه وقال:

- لقد سمعت كل شيء يا سيدي؛ سمعتكما تتشاجران وسمعت الضربة، لكنني لن أخبر أيَّ شخص، فجميع أهل البيت نائمون.. فلنتخلص منه معًا!

وكان هذا كافيًا لأتخذ قراري، فما دام خادمي المخلص نفسه لا يصدق براءتي، كيف سأنجح في إقناع اثني عشر مُحلفًا أحمق بها؟ قمت أنا و«لال شودر» بالتخلص من الجثة في تلك الليلة، وخلال بضعة أيام امتلأت كل جرائد لندن بخبر اختفاء النقيب «موريستان» الغامض.. لكنني بالكاد أُلام على وفاته.. الخطأ الذي أعترف بارتكابه حقًّا هو إخفاء جثته واحتفاظي بالكنز كاملًا، لهذا أريدكما أن تقوما برد الحق لصاحبته.. اقتربا مني لأخبركما بمكانه.. لقد أخفيت الكنز في الـ.....)

وهنا بتر عبارته وظهر تعبير شنيع على وجهه؛ فاتسعت عيناه بشدة، وتدلى فكه لأسفل، وأخذ يصرخ بصوت لن أنساه أبدًا: (أبعداه! لا تسمحا له بالدخول بحق المسيح!) نظر كلانا إلى النافذة التي كان نظره ثابتًا عليها لحظتها، ولمحنا وجهًا ينظر نحونا من بين الظلام.. كان وجهًا ملتحيًا، ذا شعر كثيف، وعينين قاسيتين، لمعتا بأشد علامات الحقد.. اندفعتُ أنا وشقيقي نحو النافذة، لكن الرجل سرعان ما اختفى، وعندما عدنا لوالدنا لنطمئن عليه، وجدنا رأسه متدليًّا فوق صدره، وقد توقف نبضه للأبد!

قمنا بتفتيش الحديقة ليلتها دون فائدة، فلم نرَ أي أثر له، باستثناء بصمة قدم واحدة وجدناها داخل حوض الزهور، ولولا رؤيتنا لذلك الأثر لظننا أننا تخيلنا رؤية الرجل.. بعد ذلك عثرنا على المزيد من الأدلة على أن أحدهم يحوم حولنا، لأننا وجدنا نافذة حجرة أبي مفتوحة، وقد فُتشت جميع دواليبه وصناديقه، ووُضعت فوق صدره ورقة ممزقة مكتوب فيها «علامة الأربعة».. لم نفهم معناها، ولا عرفنا من هو ذلك الزائر السري.. وفي حدود علمنا، لم يتم سرقة أي شيء من

ممتلكات أبي، مع أن كل شيء كان مقلوبًا رأسًا على عقب، وقد استنتجت أنا وشقيقي أن الموضوع بالتأكيد له علاقة بالخوف الذي لازم أبينا طيلة حياته، لكننا لم نعرف ما هو أكثر..

وهنا توقف الرجل الضئيل عن الحديث لوهلة، أخذ يقوم فيها بإعادة إشعال الأرجيلة التي أمامه، قبل أن ينفث دخانها وهو غارق بالتفكير لبضع لحظات.. جلسنا نحن الثلاثة في انتباه كامل نستمع لحكايته الغريبة، وفي أثناء الجزء البسيط الذي ذكر فيه وفاة والد الآنسة «موريستان»، شحب وجه تلك الأخيرة بشدة، لدرجة أنني قلقت أن تفقد وعيها!

لكنها لحسن الحظ انتبهت بعد شرب كوب كبير من الماء صببناه لها من إبريق جاء من مدينة البندقية، كنت قد وجدته على منضدة جانبية.. تراجع «شيرلوك هولمز» للوراء بكرسيه، وقد بدا شارد الذهن، بينما تراخى جفناه فوق عينيه اللامعتين، وهنا تذكرت كم كان يشتكي في ضيقٍ من الحياة المملة.. وأظن أن هذه القضية معقدة بما فيه الكفاية لاستنفاد قدراته الذهنية لأقصى حد ممكن.. أخذ السيد «ثاديوس شولتو» ينقل نظراته بيننا، وقد بدا عليه الفخر لما كان لقصته من تأثير علينا، ثم أخذ ينفث الدخان من أرجيلته الضخمة مكملًا:

– كما تتوقعون، تحمست أنا وشقيقي لموضوع الكنز الذي حدثنا عنه أبي، وظللنا نحفر هنا وهناك طيلة أسابيع وشهور، نقَّبنا في كل جزء من الحديقة، لكن بلا نتيجة. أكثر شيء أثار سخطنا أن مكان إخفائه للكنز كان على طرف لسانه بلحظة وفاته.. أيقنا أن تلك الثروة لا مثيل لها من ذلك التاج الذي كان قد أخرجه منها.. تناقشت أنا وأخي «بارثيلوميو» حول ذلك التاج لبعض الوقت، وكان من الواضح أن اللآلئ التي صُنع منها قيمة للغاية.. اعترض شقيقي على التخلي عنه؛ لأنه –وأرجو أن يظل هذا سرًّا– كان يعاني من نفس مشكلة أبي، فقد كان يعتقد أننا لو تخلينا عن ذلك التاج، فقد يثير هذا الشائعات من حولنا ويوقعنا في الكثير من المشكلات.. كل ما كان بوسعي فعله هو أن أقنعه بأن يتركني أبحث عن عنوان الآنسة «موريستان»، وأرسل لها لؤلؤة واحدة من التاج كل فترة، حتى لا يصيبها العوز والحاجة أبدًا..

وهنا قالت رفيقتنا بكل صدق وتأثر:

– كانت لفتة طيبة منك، وتصرفًا في غاية النبل.

وهنا أشاح الرجل الضئيل بيده نافيًا، وقال:

– لقد كنا أوصياء على نصيبك من الكنز، وهذا هو ما كنت أفكر فيه وقتها، لكن من المؤسف أن شقيقي «بارثيلوميو» لم يره هكذا مطلقًا! كان لدينا ما يكفي من مال ويزيد، ولم أكن أطمع فيما هو أكثر، بالإضافة لأنها ستكون قلة تهذيب مني أن أعامل سيدة شابة ابنة صديق لوالدنا بتلك الطريقة الحقيرة.. وكما يقول الفرنسيون: «تدني الأخلاق يقود إلى الجريمة». ذلك الشعب لديه طرق رائعة للتعبير عن الأمور.. المهم، اختلفنا بشدة بخصوص ذلك الموضوع لدرجة أنني فضلت الرحيل عن البيت وأن أستقل بنفسي، فتركت منزل «بونديشتيري» آخذًا معي خادمي المخلص الهندي «ويليامز» العجوز.. لكنني عرفت بالأمس بوقوع شيء مهم، ألا وهو اكتشاف الكنز! لذلك أرسلت للآنسة «موريستان» على

الفور.. ما يتبقى الآن فعله هو الذهاب لـ «نوروود»؛ لنطالبه بنصيبنا.. لقد تحدثت مع شقيقي بالأمس وشرحت له وجهة نظري، لذلك فهو يتوقع زيارتنا مع أنه لا يتطلع شوقًا لها بطبيعة الحال.

صمت السيد «ثاديوس شولتو» بعد عبارته تلك، وأخذ يتململ في مجلسه على أريكته الفخمة، بينما خيم الصمت علينا جميعًا.. أخذنا نفكر بتطور الأمور، وكان هولمز هو أول من كسر حاجز الصمت عندما هبَّ واقفًا ليقول:

– لقد أحسنت التصرف طيلة الوقت يا سيدي، وقد نتمكن من ردِّ جزء من جميلك، عن طريق إخبارك ببعض النقاط التي –فيما أظن– لا تزال خفية عنك.. لكنني أخشى أنني أتفق مع الآنسة «موريستان» في كون الوقت متأخر، ويجب علينا التحرك حالًا.

قام مضيفنا بلف خرطوم أرجيلته بتأنٍ، قبل أن يُخرِج من وراء ستار معطفًا طويلًا ذا ياقة وأكمام من الفراء، وأغلق أزرار معطفه بحرص، مع أن الليلة قد اقتربت من نهايتها، فقد ارتدى قلنسوة من جلد الأرانب، ذات طرفين تدليا ليغطيا أذنيه، فلم يظهر منهما إلا وجهه الشاحب الذي أخذت تعبيراته تتغير كل لحظة، وقد علق على هذا وهو يقودنا عبر الممر:

– صحتي ضعيفة نوعًا ما، لهذا فأنا مضطر لاتخاذ جانب الحيطة والحذر، وأحيانًا ما أبالغ في الاعتناء بها..

انتظرت عربتنا في الخارج، وبدا أن خط السير كان مُحضرًا مسبقًا، فبمجرد أن ركبنا حتى انطلق السائق بكل سرعة، وأخذ «ثاديوس شولتو» يتحدث بسرعة كبيرة وبصوت حاول أن يعلو على صوت صرير عجلات العربة.. قال لنا:

– إن «بارثيلوميو» رجل ذكي للغاية، وإلا لما تمكن من التوصل لمخبأ الكنز.. ذلك الخبيث عرف أنه ولا بد أن يوجد مخبأ داخل البيت؛ لذلك قام بحساب مساحة المنزل المكعبة، ثم أخذ قياسات كل جزء فيه بشكل منفصل، بحيث لا يغفل عن أي شيء.. وقد اكتشف أن ارتفاع المبنى كان أربعة وسبعين قدمًا، ولكنه عندما قام بجمع جميع ارتفاعات الغرف المنفصلة، وأضاف لها مساحة التجاويف التي تأكد منها، وجد أن الناتج الإجمالي سبعين قدمًا فقط.. أي أن هناك نحو أربعة أقدام إضافية لم تظهر ضمن تلك المساحة، وكان المكان الوحيد الذي يسمح بوجود هذا هو الجزء العلوي من البيت.. هكذا قام بصنع فتحة في السقف المتكون من طبقة من الألواح الخشبية، والجبس في أعلى غرفة بالمنزل، وقد وجد فوقه غرفة علِّية صغيرة الحجم، وكانت مغلقة، ولا يعرف أحد بوجودها من الأصل.. وبمنتصف تلك الحجرة عثر على صندوق الكنز وقد استقر فوق عارضتين خشبيتين.. قام بإنزال الصندوق عبر الفتحة، ليجد بداخله مجوهرات قيمتها لا تقل عن نصف مليون جنيه إسترليني!

نظرنا لبعضنا بعضًا بذهول عندما ذكر ذلك الرقم، فلو تمكنا حقًّا من الحصول على نصيب الآنسة «موريستان» من ذلك الأخ، فإنها ستتحول من مجرد مربية متواضعة الحال لتصبح أغنى وريثة في إنجلترا كلها..

من الطبيعي أن يسعد أي صديق وفيٍّ لمعرفة خبر مثل هذا، لكنني أشعر بالخجل يعتريني؛ لكوني شعرت وقتها أن الأنانية ملأت روحي، فوقر في قلبي حزن عظيم.. تمتمت ببعض كلمات التهنئة الخالية

من الحرارة، قبل أن أجلس مكسور القلب محني الرأس، لا أسمع شيئًا من ثرثرة صديقنا الجديد.. لا بد أنه مصاب بوسواس المرض، وبالكاد سمعت شكواه من مجموعة متناقضة لا تنتهي من الأعراض، وأخذ يطلب مني معلومات عن تكوين ومفعول عدد كبير من الأدوية المغشوشة المنتشرة في الأسواق، وكان يحمل بعضها معه داخل حقيبة جلدية بجيبه.. لا أعتقده يتذكر –أو ينوي تنفيذ– أيًّا مما سمعه مني من إجابات يومها؛ لأن هولمز أخبرني فيما بعد أنه قد سمعني أحذره من تناول أكثر من قطرتين من زيت الخروع، وبنفس الوقت نصحته بتناول كميات كبيرة من الإستركنين كمهدئ، بينما كل هذا خطأ!

على كل حال، شعرت بأشد الراحة عندما توقفت العربة بنا فجأة، وترجل السائق، ليفتح لنا الباب.. قال السيد «ثاديوس شولتو» وهو يساعد رفيقتنا على النزول:

– ها هو ذا منزل «بونديشتيري» يا آنسة «موريستان»..

****

الفصل الخامس

مأساة في منزل "بونديشتيري"

كانت عقارب الساعة تعانق الحادية عشرة مساءً عندما وصلنا إلى محطتنا الأخيرة بمغامرتنا تلك الليلة.. تركنا ضباب المدينة المشبع بالرطوبة وراءنا، بينما تحلق طقس جميل صافٍ من حولنا، في حين هبت رياح غربية دافئة نحونا، وتحرك قطيع من السحب الكثيفة ببطء عبر السماء، وأخذ جزء من القمر يختلس النظرات نحونا من بين تلك السحب من وقت لآخر.. بدت الرؤية واضحة أمامنا لمسافة كبيرة، أخذَ «ثاديوس شولتو» واحدًا من المصابيح الجانبية بالعربة لكي يقوم بإنارة الطريق لنا إنارة واضحة..

انتصب منزل «بونديشتيري» في شموخ وسط مساحة شاسعة من الأراضي التي أحاطت به، وقد طوقه سور حجري مرتفع للغاية، تناثرت فوق قمته شظايا من الزجاج المكسور.. وسيلة الدخول الوحيدة كانت عبر الباب الضيق ذو الدعامات الحديدية.. وقد قام مرشدنا السيد «ثاديوس» بطرقة معينة تشابه طرقات سعاة البريد.. بعد لحظات ارتفع صوت أجش من الداخل:

– من الطارق؟

– هذا أنا يا «ماكموردو»! لا تخبرني أنك لم تميز طرقاتي!

سمعنا صوت تبرم خافت، ثم صوت صرير مفتاح داخل قفل، وصوت مزلاج ينزلق، قبل أن ينفتح الباب ببطء ليظهر من خلفه رجل قصير عريض الكتفين، وقد انعكس ضوء المصباح على وجهه البارز الملامح، وعينيه اللامعتين المرتابتين.. سأل:

– أهذا أنت يا سيد «ثاديوس»؟ لكن من هؤلاء الذين معك؟ لم تأتني أوامر بشأنهم من سيدي!

– حقًّا؟ لقد فاجأتني يا «ماكموردو»! لقد أخبرت «بارثيلوميو» البارحة أنني سأحضر معي بعض الأصدقاء..

– لم يخرج سيدي من غرفته اليوم على الإطلاق يا سيد «ثاديوس»، ولم أتلق أي أوامر بهذا الشأن.. وأنت تعلم جيدًا أنني يجب أن ألتزم بالتعليمات.. بوسعي السماح لك أنت بالدخول، ولكن أصدقاءك سيضطرون للبقاء في الخارج.

كان هذا موقفًا غير متوقع.. تلفت «ثاديوس شولتو» من حوله بتردد وارتباك قبل أن يقول بضيق:

– هذا ليس تصرفًا لائقًا يا «ماكموردو»! ما دمت أنا معهم، فيجب أن يكون هذا كافيًا لك! وهناك سيدة شابة معنا.. لا يمكنها الانتظار بالخارج في مثل هذا الوقت المتأخر.

لكن الرجل ظلَّ مصرًا على موقفه:

– أنا في أشد الأسف يا سيد «ثاديوس»؛ فربما يكونون أصدقاءك، ولكن ربما لا يكونون من أصدقاء سيدي، وهو يدفع لي أجرًا جيدًا للغاية لكي أؤدي عملي، فيتوجب عليَّ أن أقوم به على أفضل نحو ممكن.. ثم إنني لا أعرف أحدًا من أصدقائك هؤلاء من الأصل!

وهنا هتف «شيرلوك هولمز» بلطف:

– بل تعرف يا «ماكموردو».. لا أظنك نسيتني بتلك السرعة، ألا تتذكر الرجل الذي صارعك لثلاث جولات في نُزُل «أليسون» في تلك الليلة التي كنت تصارع فيها منذ أربعة أعوام؟

وهنا هتف الملاكم السابق:

– السيد «شيرلوك هولمز!» يا للهول! كيف لم أتعرف عليك؟ لو أنك تقدمت من البداية لتلكمني لكمتك العكسية الشهيرة تحت الفك بدلًا من الوقوف بعيدًا في صمت هكذا لعرفتك على الفور! لقد أهدرت مواهبك يا سيدي لو سمحت لي بقول هذا، فقد كان بوسعك الوصول لمكانة أعلى من ذلك المجال لو أنك أردت..

ضحك هولمز مجيبًا عليه:

– أرأيت يا واتسون؟ لو انغلقت أمامي كل الأبواب فلا يزال المجال مفتوحًا أمامي في مجال آخر.. أنا متأكد أن صديقنا هذا لن يتركنا واقفين بالخارج في البرد الآن، أليس ذلك صحيحًا؟

أجاب الرجل على الفور:

– تفضلوا بالدخول يا سيدي، أنت وأصدقاءك.. أنا آسف للغاية يا سيد «ثاديوس»، لكن الأوامر التي تلقيتها صارمة للغاية.. كان يجب عليَّ التأكد من هوية أصدقائك قبل السماح لهم بالدخول..

امتدَّ أمامنا ممر مفروش بالحصى، يعبر أراضي مقفرة حتى يصل إلى عتبات المنزل الضخم المربع.. كان شكل المنزل غير مميز، وقد غرق معظمه وسط الظلام الشديد، باستثناء جانب واحد سطع عليه شعاع القمر، وانعكس على إحدى نوافذ الطابق الأعلى.. شعرت بقشعريرة من الخوف تسري عبر جسدي من حجم المنزل شديد الضخامة، والظلام الذي بسط سلطانه عليه، والصمت الذي أحكم مخالبه على كل ركن فيه.. حتى رفيقنا «ثاديوس شولتو» بدا مرتبكًا، وقد أخذ المصباح يهتز في يديه.. قال في النهاية بتوتر:

– لا أفهم شيئًا.. لا بد أن هناك خطبًا ما، فقد أبلغت «بارثيلوميو» بكل وضوح أننا قادمون، ولكنني أرى نافذة غرفته مظلمة.. لا أفهم حقًّا..

سأله هولمز:

– هل من عادة شقيقك تشديد الحراسة من حوله هكذا؟

– نعم، فقد انتقلت له العدوى من أبي.. لطالما كان الابن المفضل لأبي، وأحيانًا اعتقدتُ أن أبي كان يخبره بأكثر مما يخبرني.. تلك النافذة العلوية التي ينعكس عليها ضوء القمر هي نافذة غرفته.. تبدو ساطعة لكنني لا أظن الضوء قادم من داخل الغرفة، وإنما مجرد ضوء منعكس عليها من الخارج..

رد عليه هولمز بقوله:

– صحيح، لكنّ هناك بصيصًا من الضوء في النافذة التي تجاور الباب.. نافذة من هذه؟

– همم.. نافذة غرفة مدبرة المنزل، مدام «بيرنيستون» العجوز.. بوسعها إخبارنا عن الموضوع كله.. أرجو فقط ألا يكون لديكم مانع أن تنتظروني هنا لبضع دقائق ريثما أدخل لها، فهي لا تعرف بقدومكم، وقد يصيبها الفزع لو رأتنا جميعًا مرة واحدة و.... لحظة! ما هذا؟

ارتعشت يده التي رفعت المصباح لدرجة جعلت دوائر الضوء من حولنا تتذبذب وترتعش.. أمسكت الآنسة «موريستان» بمعصمي، ووقفنا جميعًا وقد ارتجفت القلوب بداخل الصدور، بينما أخذت آذاننا تسترق السمع، لأن هناك صوت أنين امرأة حاد ارتفع من الداخل فشق سكون الليل!

بدا خوف المرأة التي صرخت ظاهرًا في صوتها ومثيرًا للشفقة، بينما علق السيد «شولتو»:

– هذا صوت مدام «بيرنيستون»! هي المرأة الوحيدة التي تقطن هذا المنزل. انتظروني هنا وسأعود فورًا..

أسرع نحو الباب، وأخذ يدقه بطريقته المميزة، ثم رأينا امرأة عجوز طويلة القامة تفتح له الباب، وتسمح له بالدخول وقد بدت عليها أشد علامات السعادة لرؤيته.. سمعناها تقول له بسعادة غامرة:

– لَكَم أنا سعيدة لمجيئك يا سيد «ثاديوس»!

ثم انغلق الباب فخفت صوتها حتى صار همهمة مكتومة، فلم نسمع ما قالته بعد ذلك.. كان مرشدنا قد ترك لنا المصباح، فحركه هولمز ببطء وهو ينظر من حوله بأرجاء المنزل بتمعن، وأخذ ينظر نحو أكوام القمامة الكثيرة التي ملأت المكان، بينما وقفتُ أنا بجوار الآنسة «موريستان»، وقد وضعت يدها بيدي!

الحب أمر غريب ومدهش وغير مفهوم في معظم الحالات؛ فها نحن أولاء، شخصان لم ير أحدنا الآخر قبل عصر اليوم، ولم نكد نتبادل أي كلمات، أو حتى نظرات إعجاب، ومع ذلك فقد مدَّ كل واحد منا يده نحو رفيقه دون تفكير.. تعجبت للأمر بشدة بعد ذلك، لكنني شعرت لحظتها أنه شيء بَدَهِي للغاية، والواقع أنها فيما بعد أخبرتني هي أيضًا أكثر من مرة أن حدسها وقتها هو الذي دفعها للجوء إليَّ بحثًا عن الاطمئنان والحماية..

هكذا وقفنا كلانا، وقد تشابكت أيدينا مثل الأطفال، بينما خيم السلام فغمر قلبينا الشابين ليطغي على كل ذلك الظلام الذي أحاط بنا.. نظرت حولها قبل أن تعلق بصوت خافت:

– إنه مكان غريب للغاية!

– يبدو لي وكأن كل جرذان إنجلترا قد أطلق سراحها هنا.. رأيت مشهدًا مشابهًا بالقرب من بلدة «بالرات»؛ حيث يعمل المُنقبون..

علق «شيرلوك هولمز»:

– وهي لنفس الأسباب كذلك، فهذه آثار البحث عن الكنز.. لا تنسيا أنهم ظلوا يبحثون عنه طيلة ستة أعوام؛ فلا عجب أن الأرض تبدو كمنجم قد قُلب رأسًا على عقب..

وفي تلك اللحظة انفتح الباب ليظهر منه «ثاديوس شولتو»، الذي أتى نحونا مهرولًا، وقد مدَّ يديه أمامه، بينما ارتسمت نظرة رعب في عينيه. صرخ:

– هناك مكروه أصاب «بارثيلوميو»! أنا خائف عليه! أعصابي لا تتحمل كل هذا!

بدت عليه أشد علامات الخوف حقًّا، وارتسمت علامات الاستجداء العاجز على وجهه الواهن الذي برز من ياقة معطفه المكسوة بالفراء، فبدا كطفل ضخم عاجز عن التصرف.. وهنا قال هولمز بحدة وصرامة:

– هيا لندخل المنزل!

وهنا رد عليه «ثاديوس شولتو» بنفس نبرة الاستجداء:

– نعم، أرجوكم! لا أظنني قادر على التصرف!

تبعناه لغرفة مدبرة المنزل التي كانت بالجانب الأيسر من الممر، وبداخل الغرفة وجدنا المرأة العجوز تجول جيئة وذهابًا وهي بادية الرعب، بينما أصابعها تنقبض بتوتر، لكن فيما يبدو كانت رؤيتها للآنسة «موريستان» ذات تأثير مهدئ لأعصابها، فقد هتفت العجوز فجأة من بين بكائها الهستيري:

– لَكَم يبدو وجهك عذبًا هادئًا يا بنيتي.. فليباركك الرب، فقد ارتحت لرؤيتك بعد كل ما عانيته طيلة اليوم!

ربتت رفيقتنا الشابة على يد العجوز الرفيعة التي أنهكها العمل واستنزفها، وتمتمت ببضع كلمات؛ مواساة لطيفة لا تصدر إلا من أنثى، فعادت الدماء تغزو وجنتَيْ مدبرة المنزل الشاحبتين.. بعد لحظات قالت العجوز:

– قام سيدي بإغلاق باب غرفته على نفسه ولم يُجِب عليَّ من وقتها.. أحيانًا ما يفعل هذا، فتركته على راحته، وانتظرته طيلة اليوم أن يستدعيني عندما يناسبه هذا، لكنني منذ ساعة خشيت أن يكون قد أصابه مكروه، فقررت الصعود ونظرت عبر ثقب المفتاح، وهالني ما رأيت! يجب أن تصعد يا سيد «ثاديوس» وترى بنفسك، فطيلة العشرة أعوام التي قضيتها في الخدمة في هذا البيت، والتي رأيت فيها السيد «بارثيلوميو شولتو» في كل أحواله، سواء فرح أو حزن، لم أرَ مثل هذا التعبير على وجهه من قبل!

تناول «شيرلوك هولمز» المصباح وتقدمنا، لأن رفيقنا السيد «ثاديوس شولتو» كان لا يزال محطم الأعصاب، لدرجة أنني اضطررت لإسناده بيدي ونحن نصعد درجات السلم، فقد كانت ركبتاه بالكاد تحملانه..

أخرج هولمز عدسته المكبرة من جيبه مرتين أثناء صعودنا، وتفحص بدقة بعض العلامات التي بدت لي مجرد لطخات من التراب التي وسَّخت السجادة البنية التي افترشت درجات السلم.. صعد ببطء، درجة بعد الأخرى، وهو لا يزال يحمل المصباح، وقد أخذ يتفحص كل شبر من حوله، بينما ظلت الآنسة «موريستان» بالخلف تسند مدبرة المنزل الخائفة..

قادتنا درجات السلم لممر طويل عُلِّقت على يمينه قطعة من النسيج اليدوي هندية الأصل تُمثِّل صورة ضخمة، بينما اصطفت على يساره ثلاثة أبواب.. تقدم هولمز في الممر بنفس الخطوات البطيئة المتمهلة، بينما نتبعه من كثب، وقد ارتمت ظلالنا السوداء خلفنا في الممر كأنها تتبعنا هي الأخرى..

كان ثالث تلك الأبواب هو هدفنا، فطرقه هولمز بحزم دون أن يتلقى جوابًا، فأدار المقبض محاولًا أن يفتحه بالقوة، لكنه كان مغلقًا من الداخل بمزلاج ضخم قوي، ظهر لنا جزء منه عندما قرَّبنا منه المصباح.. لم يكن المفتاح بموضعه، لهذا كان ثقبه ظاهرًا لنا، فانحنى هولمز ينظر عبره، قبل أن يعتدل فورًا وهو يشهق بصوت عالٍ!

بدا عليه تأثر لم أر مثله في حياتي، وقال لي:

– لقد حدث شيء لعين بالداخل يا واتسون! ماذا تستنتج منه؟

انحنيتُ لأنظر عبر ثقب المفتاح، قبل أن أعتدل متراجعًا للوراء في ذعر.. كان ضوء القمر يحتل الغرفة كلها، التي خيَّم عليها ضوء غامض مريب، وقد أخذ وجه معلق وسط الهواء يحدق إلى وجهي بحدة، كما شعرت وقتها، كان وجه رفيقنا المرتعد «ثاديوس» نفسه!

نفس الرأس المحدب اللامع، ونفس طوق الشعر الأحمر الخشن الذي يحيط به، وملامحه الشاحبة نفسها، لكن الوجه الذي تدلى أمامي ارتسمت عليه ابتسامة مريعة!

كانت الابتسامة الغريبة التي ارتسمت على الوجه تحت ضوء القمر كفيلة بإثارة الرعب أكثر من أي تشوه.. ذُعرت لدرجة أنني نظرت للخلف نحو رفيقنا وأنا أتساءل كيف دخل إلى الغرفة بينما كان وراءنا، وهنا تذكرت أنه أخبرنا أنه وأخاه توأمان.. قلت لهولمز بتوتر:

– هذا فظيع.. ماذا سنفعل؟

أجابني بهدوء:

– أول شيء يجب فعله هو كسر ذلك الباب!

ثم اندفع نحوه بكل قوة ليرتطم به، فأصدر الباب الخشبي طقطقة قوية، لكنه لم يتزحزح من مكانه قيد أنملة، فاندفعنا معًا نرتطم بالباب، وهذه المرة انكسر فجأة تحت تأثير ثُقلنا، فوجدنا نفسينا داخل حجرة «بارثيلوميو شولتو».

مما ظهر لنا من شكلها، كان من الواضح أنها تُستعمل كمعمل كيميائي، فقد ارتص صفان من الزجاجات ذات الأغطية الزجاجية بجوار الحائط المواجه للباب، بينما تناثرت مجموعة من أنابيب الاختبار، ومواقد البنزين وأوعية التقطير فوق المنضدة.. وبأركان الحجرة انتصبت مجموعة من زجاجات الأحماض الموضوعة داخل سلال من الخوص، وقد بدا أن إحدى هذه الزجاجات مكسورة، لأن سائلًا داكنًا تسرب منها، بينما امتلأ الهواء من حولنا برائحة نفاذة تشابه رائحة القطران!

في أحد جوانب الحجرة كانت هناك بضع درجات لسلم، تقع وسط كومة من الألواح الخشبية والجبس، تعلوها فتحة بالسقف تكفي لمرور رجل عبرها، وأسفل تلك الدرجات رقدت لفة ضخمة من الحبال ملقاة بإهمال.

وكان صاحب المنزل على كرسي خشبي من الطراز ذي الذراعين بجوار المنضدة، وقد مال رأسه على كتفه اليسرى، وقد شقت تلك الابتسامة الشنيعة وجهه.. كان جسده متيبسًا باردًا، مما دل على أن الوفاة كانت منذ عدة ساعات.. لم تبدُ لي ملامحه فقط هي الغريبة، وإنما جميع أطرافه كذلك..

كانت هناك أداة غريبة مُلقاة بجوار يده، عصا ملساء بنية اللون يزينها رأس حجري، فبدت كمطرقة، وكانت مربوطة دون عناية بحبل خشن، وبجوارها ارتمت قطعة من الورق المقطوع من دفتر ملاحظات وقد خُطت عليها بعض الكلمات التي قرأها هولمز في صمت قبل أن يناولني الورقة.. رفع حاجبيه لأعلى وهو يُعلق:

- هل رأيت هذا؟

قرأت الكلمات القليلة بذعر في ضوء المصباح:

- علامة الأربعة!

ثم تساءلت:

- ما معنى كل هذا بحق السماء؟

وجدته ينحني فوق جسد الرجل الميت وهو يقول:

- معناه أننا أمام جريمة قتل! توقعت هذا.. انظر هنا!

وأتبع جملته بأن أشار نحو شيء يشبه شوكة طويلة داكنة اللون مغروسة في جلد جثة الرجل، فوق أذنه مباشرة.. قلت بحيرة:

- تبدو كشوكة..

- هي كذلك بالفعل، يمكنك التقاطها لكن بحرص لأنها مسممة.

التقطتها بحرص بين سبابتي وإبهامي، فخرجت من الجلد بسهولة فلم تكد تترك أثرًا، باستثناء نقطة دم صغيرة ظهرت مكان وخزتها.. قلت:

- ما كل هذه الألغاز؟ أنا لا أفهم شيئًا، والأسوأ أن الموضوع يزداد غموضًا مع كل خطوة.

- بالعكس، إنه يتضح مع كل لحظة.. لا ينقصنا إلا توضيح بعض النقاط لتنكشف أمامي القضية برمتها..

كنا قد نسينا وجود رفيقنا منذ دخلنا الحجرة وانشغلنا بالمأساة التي بها، فالتفتنا؛ لنجده لا يزال واقفًا عند الباب، وقد أخذ يعتصر يديه وينتحب بصوت منخفض، يدمدم مرتعبًا، ثم صرخ فجأة بصوت حاد في حسرة:

- لقد اختفى الكنز! سرقوه! هذه هي الفتحة التي أنزلناه منها! لقد ساعدته وقتها، وكنت آخر من رآه! تركته هنا مساء أمس وسمعته يغلق الباب من ورائي وأنا أنزل السلم..

- كم كانت الساعة وقتها؟

- العاشرة بالضبط! وها هو قد مات! عندما تأتي الشرطة سيشتبهون في أنني الذي قتلته.. أنا متأكد من هذا! لكن لا بد أنكما تدركان أنني بريء من تلك التهمة أيها السيدان.. بالتأكيد لا تصدقان أنني الفاعل، أليس كذلك؟ هل كنت سأحضركما هنا لو كنت الفاعل؟ يا للهول! سأجن!

أخذ ينفض ذراعيه ويضرب الأرض بقدميه وهو في أشد الهياج، فاتجه هولمز نحوه، ووضع يده على كتفه برفق قائلًا:

– لا تقلق يا سيد «شولتو».. إذا أردتَ العمل بنصيحتي، فالأفضل أن تذهب؛ لإبلاغ الشرطة بما حدث، وأظهر لهم كامل استعدادك لتقديم أي مساعدة ممكنة، ونحن سنبقى هنا بانتظارك حتى تعود.

أطاعه الرجل الضئيل وهو لا يزال مصدومًا، وسمعنا صوته وهو ينزل درجات السلم متخبطًا.

❋❋❋❋

الفصل السادس

"شيرلوك هولمز" يشرح

فرك هولمز كفيه معًا وهو يقول:

– لدينا نحو نصف ساعة بمفردنا يا واتسون، لذلك أرى أن نستغلها لأقصى حد، فكما أخبرتك، تلك القضية توشك أن تكون كاملة، لكن يجب أن ننتبه كي لا نرتكب خطأً؛ بسبب الثقة الزائدة في النفس، فربما تبدو بسيطة، لكن ربما كان وراءها موضوع أكثر تعقيدًا..

– بسيطة!

هكذا صحت مندهشًا.. أي بساطة تلك التي يقصدها بحق السماء؟

شعرتُ بأسلوبه يشابه أسلوب أستاذ طب يشرح درسًا لصفه الدراسي.

– بسيطة بالتأكيد، فلتجلس فقط عند ذلك الركن؛ حتى لا تتسبب آثار قدميك في تعقيد الأمور.. هيا نبدأ العمل.. أول نقطة علينا التفكير فيها هي كيفية دخولهم، وكيف خرجوا؟ الباب لم يُفتَح منذ ليلة أمس، لكن ماذا عن النافذة؟

أتبع جملته بأن حمل المصباح متجهًا صوب النافذة، ومع أنه كان يتمتم بتعليقاته بصوت مسموع، فإنني أدركت أنه كان يوجهها لنفسه أكثر مما كان يوجهها لي.. استطرد:

– النافذة مغلقة من الداخل بترباس، كما أن إطارها قوي، وبلا أي مفصلات جانبية لنفتحها.. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه لا توجد أي ماسورة مياه بجانبها، والسطح لا يمكن الوصول إليه.. ومع كل تلك المعلومات فقد دخل رجل من النافذة.. لقد هطلت بعض الأمطار الخفيفة بالأمس، وكانت هناك بصمة قدم طُبِعَت على عتبة النافذة، وكذلك علامة دائرية الشكل من الطين، وتوجد أخرى هنا على الأرض، وكذلك بجانب المنضدة.. هل رأيت هذا يا واتسون؟ هذه أدلة كافية!

نظرت للدائرة المصنوعة من الوحل التي ظهرت بوضوح، وعلقت:

– ليست أثرًا قديمًا..

– كما أنها ملحوظة مهمة للغاية لنا، تمثِّل أكثر من مجرد أثر اقتحام أحدهم.. إنه أثر ساقٍ خشبية.. انظر عند عتبة النافذة، سترى أثر حذاء طويل الرقبة، وهو حذاء ثقيل بكعب معدني عريض، ويجاوره أثر القدم الخشبية التي ذكرتها لك..

– إذن فهو الرجل ذو الساق الخشبية!

– بالضبط، لكنه لم يكن بمفرده، كان معه شريك آخر قوي وسريع.. هل تستطيع تسلق هذا الحائط يا دكتور واتسون؟

نظرتُ عبر النافذة المفتوحة، فلمحتُ ضوء القمر وهو لا يزال ينير بكامل قوته ذلك الركن من المنزل.. كنا على ارتفاع نحو ستين قدمًا عن الأرض، وعندما نظرت من مكاني، لم أتمكن من رؤية موطئ قدم في ذلك الحائط المبني من الطوب. أجبته:

– مستحيل طبعًا! من تظنني؟

– مستحيل حقًّا دون مساعدة، لكن فلنفترض أن هناك صديقًا لك بالأعلى، وقد رمى لك ذلك الحبل المتين الذي تراه بالركن، وقد قام بربط طرفه في الخطاف الضخم المُثبت بالحائط؟ أعتقد أنك لو كنت رياضيًّا، فستستطيع التسلق لأعلى، حتى لو كنت ذا ساق خشبية، كما ستتمكن من مغادرة المكان بنفس الطريقة طبعًا، ثم سيقوم الشريك بسحب الحبل، وفكه من ذلك الخطاف، ثم سيغلق النافذة بالترباس من الداخل، قبل أن يهرب بنفس الطريقة التي دخل بها..

ثم تناول الحبل بين أصابعه؛ يتفحصه بدقة قبل أن يُكمِل:

– هناك ملحوظة أخيرة مهمة، وهي أن رجلنا ذا الساق الخشبية، وإن كان متسلقًا جيدًا، فإنه ليس بحارًا محترفًا؛ فيده ليست خشنة الملمس على الإطلاق؛ عدستي أظهرت العديد من العلامات الدموية على الحبل، خصوصًا بالقرب من طرفه؛ نتيجة لانزلاقه بسرعة شديدة تسببت في انتزاع الجلد من فوق يده..

علقت بقولي:

– كل هذا عظيم، لكنه يزيد الأمور غموضًا عن ذي قبل.. ماذا عن الشريك الغامض هذا؟ وكيف دخل الحجرة أصلًا؟

كرر هولمز كلماتي مفكرًا:

– أجل، الشريك! هناك أكثر من نقطة مثيرة للاهتمام بخصوصه؛ لأن وجوده ينفي صفة الاعتيادية عن تلك الجريمة.. وأظن أن ذلك الشريك الغامض قد سَطَّر بجريمته هذه صفحات جديدة في تاريخ الجريمة بإنجلترا، مع أن أسلوبه هذا يجعلني أسترجع جرائم مشابهة حدثت في الهند، في «سينجامبيا» بالتحديد لو لم تكن ذاكرتي قد خانتني..

كررت وراءه في حيرة:

– لكن كيف تمكن من الدخول؟ الباب كان مغلقًا بترباس، والنافذة صعب الوصول إليها.. هل تقصد أنه أتى من المدخنة؟

– فكرت في هذا، لكن موقد المدخنة صغير للغاية.

كررت بإصرار:

– كيف فعلها إذن؟

هز رأسه مجيبًا:

– أنت لا تطبق قاعدتي؛ أخبرتك عدة مرات أنك لو قمت باستبعاد الاحتمالات المستحيلة، فإن الاحتمال الذي يتبقى لك هو الحقيقة، مهما بدت صعبة التصديق! نحن نعرف أنه لم يدخل عبر الباب، ولا

النافذة، ولا المدخنة كذلك، ونعرف أيضًا أنه لم يكن مختبئًا داخل الحجرة؛ لأنه لا يوجد بها مكان لهذا، فما المكان المتبقي للتسلل منه إذن؟

صحت مجيبًا عليه:

– السقف! الفتحة الموجودة فيه!

– بالضبط، لا بد أنه استعملها.. والآن هلا تفضلت وحملت لي المصباح، لأن علينا توسيع نطاق بحثنا، لنفتش الحجرة العلوية كذلك، وهي الحجرة التي عثر على الكنز فيها!

صعد هولمز درجات السلم، متشبثًا في عارضة خشبية بيديه قبل أن يرفع نفسه لحجرة العلِّيَّة، ثم رقد على بطنه ومدَّ إحدى يديه، ليتناول المصباح مني، ثم تبعته بعد ذلك في الصعود.. كانت حجرة متسعة، تلك التي وجدنا نفسينا فيها، تبلغ نحو عشرة أقدام من أحد الجوانب، وستة أقدام في الآخر، بينما امتدت أرضيتها المصنوعة من العوارض الخشبية تحت أقدامنا، تتخللها طبقة رفيعة من الجبس والألواح الخشبية، لهذا كان علينا أثناء سيرنا أن نخطو من فوق عارضة لأخرى.. كان السقف ممتدًا لأعلى على شكل هرمي، وكان واضحًا أنه الهيكل الداخلي لسطح المنزل الفعلي..

لم نجد بها أي أثاث على الإطلاق، وقد غطت طبقة سميكة من الغبار الذي تراكم بمرور السنين أرضيتها الخشبية. استند «شيرلوك هولمز» على حائط السقف المائل وقال:

– أرأيت؟ هذا باب أفقي سحري يؤدي للسطح، بوسعي دفعه؛ لنرى السطح نفسه وهو مائل بزاوية بسيطة.. هذه هي الوسيلة التي تسلل بها الرجل الأول.. فلنرَ ما إذا كان بوسعنا العثور على أي شيء يدل على شخصيته..

وبمجرد أن خفض المصباح نحو الأرض رأيت على وجهه –للمرة الثانية هذه الليلة– علامات الذهول.. وعندما تتبعت نظراته أصبت بالذهول مثله، فقد وجدت الأرضية مغطاة بالكثير من آثار الأقدام الحافية، والتي بدت شديدة الوضوح، لكن حجمها كان بنصف حجم قدم الرجل العادي.. همست بدهشة:

– هل كان من ارتكب تلك الجريمة الشنيعة طفلًا يا هولمز؟

استجمع أعصابه خلال ثوانٍ وهو يقول:

– تشوش ذهني للحظة، لكن هذا طبيعي.. يا للأسف لم تسعفني ذاكرتي في الوقت المناسب، وإلا لكنت تنبأت بهذا.. على كل لم يعد هناك شيء مفيد لنا هنا.. هيا بنا لننزل..

في لهفة سألته بينما نعود للحجرة السفلية من جديد:

– ما نظريتك بخصوص آثار الأقدام الصغيرة تلك؟

قال في عدم صبر:

– جرب أن تقوم ببعض التحليل للمعطيات بنفسك يا عزيزي واتسون، فأنت تعرف أساليبي بالتأكيد.. قم بتطبيق ما أفعله، وسيكون من المفيد لنا مقارنة النتائج..

– لا أستطيع التوصل لأي استنتاجات من المعطيات التي أمامي.

هكذا أجبته بخجل، فقال مباشرة:

– سيتضح لك كل شيء قريبًا.. لا أظن أن هناك شيئًا له أهمية هنا، لكنني أريد إلقاء نظرة خاطفة على كل حال..

أتبع جملته بأن أخرج عدسته وشريط القياس، وجثا على ركبتيه، ودار في أرجاء الحجرة، يقيس، ويفحص، ويقارن، وقد كاد أنفه الطويل يلامس الأرضية، بينما ضاقت عيناه اللامعتان كعيون الصقور.. تحرك بخفة وصمت ذكَّراني بحركات الكلاب البوليسية عندما تنطلق لتقتفي أثر رائحة ما، وبتلك اللحظة دارت بذهني فكرة غريبة، وهي أن هولمز كان ليُمثل مجرمًا شديدَ الدهاء والخبث لو أنه قرر ذات يوم أن يستغل قدراته تلك ضد القانون بدلًا من استخدامها كما يفعل الآن للدفاع عنه.. كان يتمتم بينه وبين نفسه أثناء بحثه، وفي النهاية أطلق صرخة فرح عالية قبل أن يهتف:

– نحن سعداء الحظ، فقد اقتربت من حل مشكلتنا.. لقد وطأ الرجل الأول لسوء حظه في مادة «الكيروزيت»، وبوسعك رؤية الخطوط الخارجية لقدمه الصغيرة هنا، بجوار تلك الفوضى ذات الرائحة الكريهة.. لقد تصدعت الزجاجة كما ترى، وتسرب منها الحمض..

سألته:

– وما الفائدة؟

– لا شيء، باستثناء أننا سنتمكن من الإمساك به؛ لأنني أعرف أين نجد كلبًا يستطيع اقتفاء أثر تلك الرائحة وإن كانت في نهاية العالم.. لو كان بوسع قطيع من كلاب الصيد اقتفاء أثر سمكة رنجة لمسافة مقاطعة كاملة، فتخيل المسافة التي يستطيع كلب مدرب تدريبًا خاصًا كالذي أقصده تغطيتها في تتبع رائحة مميزة مثل هذه؟ يبدو أن.... أوه، ها قد وصل رجال الشرطة.

ارتفع صوت خطوات ثقيلة، صاحبها ضجيج من الأصوات العالية آتيًا من أسفل، وانغلق باب الردهة بصوت مرتفع بعد ذلك.. قال لي هولمز:

– تحسس ذراع ذلك المسكين بسرعة قبل أن يصلوا هنا.. أخبرني بم تشعر؟

فعلت كما قال، أجبت:

– إنها متيبسة كالخشب!

– بالضبط، لأنها في حالة انقباض شديدة، يزيد من تيبس الجثث المعتاد.. ولو وضعنا في الحسبان التعبير الغريب المرتسم على وجهه، وتلك الابتسامة المتشنجة، فما الاستنتاج الذي نصل إليه؟

– أن سبب الوفاة مادة شبه قلوية من مصدر نباتي، مثل الستريكنين مثلًا، فتسببت في الكزاز..

– هذا ما خطر ببالي بالفعل بمجرد رؤيتي لانقباض عضلات الوجه، ولهذا أخذت أبحث فور دخولي للحجرة عن الطريقة التي دخل بها السم لجسده، فعثرت على تلك الشوكة التي غُرزت بقوة متوسطة الشدة نحو رأسه. لاحظ أن الجزء الذي أُصيب هو الجزء الذي من المفترض أن يواجه فتحة السقف إياها لو افترضنا أنه كان يجلس مستقيمًا في مقعده.. والآن انظر إلى الشوكة.

تناولتها بحرص شديد ورفعتها أمام ضوء المصباح، لأجدها طويلة حادة سوداء اللون، وقد لمع طرفها الحاد كما لو كانت هناك بقايا مادة صمغية قد جفت فوقه، بينما بدا الطرف الآخر غير الحاد كأنه قد شُحذ باستخدام سكين.. سألني هولمز:

- هل تظنها من أصل إنجليزي؟

- طبعًا لا..

- إذن فمن المفترض أن تساعدك كل تلك البيانات على التوصل لاستنتاج ما، والآن ها قد أتى رجال الشرطة، ويمكن للقوات المساعدة -نحن- التراجع للصفوف الخلفية.

ارتفع صوت الخطوات المقتربة أثناء حديثه، وسرعان ما دخل للحجرة رجل بدين مهيب ببذلة رمادية اللون. كان ذا وجه أحمر وجسد ضخم ممتلئ، بينما أخذت عيناه الضيقتان اللامعتان تنظران هنا وهناك في حدَّة وذكاء من بين جفنيه المنتفخين.. ومن ورائه دخل مفتش يرتدي الزي الرسمي، ومن ورائهما ظهر «ثاديوس شولتو» الذي كان لا يزال يرتجف كما هو.. صاح البدين بصوت أجش بانزعاج:

- من كل هؤلاء؟ يبدو لي المنزل مكتظًا كجُحر أرنب!

خاطبه هولمز بهدوء:

- لا أظنك نسيتني بتلك السرعة يا سيد «أثيلني جونز».

أجابه الرجل بصوت كالأزيز:

- أكيد أتذكرك يا سيد «هولمز»! لن أنسَ أبدًا كيف قمت بإلقاء محاضرة علينا عن فائدة الاستدلالات والآثار في الوصول لحل قضية جوهرة «بيشوب جيت»، صحيح أنك ساعدت في وضعنا على الطريق الصحيح، لكنني متأكد أنك تعرف الآن أنه كان مجرد حظ سعيد، وليس نتيجة الاستدلال!

- كان استدلالًا منطقيًّا بسيطًا.

- هل تزال مصرًّا؟ على كل حال، ما أراه أمامي هنا ليس إلا حقائق مجردة، لا مجال للنظريات فيها.. لحسن الحظ أنني كنت في قسم شرطة «نوروود» في قضية أخرى! ما سبب وفاته في رأيك؟

أجابه «شيرلوك هولمز» ببرود:

- لا أظن هذه القضية تحتاج لطريقتي التي تعتمد على الاستنتاج.

- لا أنكر أنك تتمكن من إصابة كبد الحقيقة أحيانًا أيها العزيز.. أرى أن الباب كان مغلقًا، وحسبما فهمت، فُقدت مجوهرات قيمتها تصل لنصف مليون جنيه إسترليني.. ماذا عن النافذة؟

- كانت مغلقة بقوة من الداخل، لكن هناك آثار أقدام عند عتبتها.

- حسنًا، ما دامت مغلقة بإحكام إذن لا قيمة لتلك الآثار، فهذا هو التفكير المنطقي.. ربما يكون الرجل قد توفي من نوبة قلبية، لكن المجوهرات المفقودة تقف حائلًا أمام هذا الاستنتاج.. هممم.. لدي نظرية، فأنا كذلك تصيبني تلك التجليات أحيانًا.. هل يمكنك مغادرة الحجرة أيها المفتش، ومعك السيد

«شولتو»؟ ويمكن لصديقك هذا أن يبقى.. لقد اعترف «ثاديوس» بلسانه أنه كان برفقة أخيه البارحة.. ربما يكون الأخ قد توفي من أزمة قلبية، فغادر الأخ ومعه الكنز.. ما رأيك في هذه النظرية يا سيد هولمز؟

– وبعدها قام المتوفى وتبرَّع بإغلاق الباب ثم عاد مكانه وسقط ميتًا!

– هممم.. غير منطقي حقًّا.. فلننظر إلى الموضوع من زاوية أخرى إذن.. كان «ثاديوس شولتو» هنا برفقة أخيه، ودار شجار بينهما، وهذا مقدار ما نحن متأكدين منه. بعد هذا توفي الأخ واختفت المجوهرات، وهذا نعرفه أيضًا.. لم يرَ أحد الأخ منذ تركه «ثاديوس»، كما أنه لم ينم في فراشه، و«ثاديوس» يبدو شديد الاضطراب بدرجة مريبة، وسرعان ما سأتمكن من إثبات التهمة عليه!

قال هولمز:

– أنت لم تطلع على كل الحقائق بعد.. هناك تلك الشوكة الخشبية، ولدي كل الأسباب للاعتقاد بأنها مسمومة، كانت مغروسة في رأس الرجل، ويمكنك رؤية العلامة التي تخلفت عنها.. وهناك تلك البطاقة المكتوب فيها ذلك الكلام الغريب، والموضوعة فوق المنضدة، وإلى جانبها تلك الأداة الغريبة ذات الرأس الحجري.. هل هناك موضع لكل تلك الأشياء في نظريتك؟

بدا الغرور الشديد على المحقق البدين وهو يقول:

– كلها تؤكدها من جميع النواحي؛ لأن هذا المنزل يمتلئ بالتحف الهندية.. لا بد إذن أن «ثاديوس» قد جلبها معه هنا، ولو كانت تلك الشوكة مسمومة حقًّا، إذن فلا بد أن «ثاديوس» قد استخدمها في قتل أخيه مثلما كان سيفعل أي شخص مكانه.. أما تلك البطاقة فأنا متأكد أنها هراء بلا معنى، أو خدعة لتضليلنا على الأرجح.. السؤال المهم هو كيف غادر المكان؟ هناك بالطبع فتحة السقف!

اتجه بنشاط كبير نحو الفتحة، فصعد درجات السلم وحشر نفسه عبرها ليدخل للعلِّية، قبل أن يرتفع صوته المليء بالسرور وهو يقول إنه قد عثر على الباب الأفقي السحري..

هز هولمز كتفيه معلقًا:

– على الأقل بوسعه اكتشاف بعض الأشياء.. هناك لمحات من العقل تهاجمه من وقت لآخر..

ثم استطرد بالفرنسية:

– المشكلة أن أكثر الناس إزعاجًا هم الحمقى الذين يمتلكون بعض الذكاء!

هبط «أثيلني جونز» السلم بحرص وهو يقول:

– أرأيت؟ الحقائق أفضل بكثير من مجرد بعض النظريات! لقد تأكد رأيي بتلك القضية؛ يوجد باب أفقي يؤدي إلى السطح، وهو مفتوح جزئيًّا..

– أنا من فتحته!

– إحم.. حسنًا.. أعرف هذا.. إذن فقد لاحظته؟

بدا عليه بعض الإحباط، قبل أن يكمل:

– بصرف النظر عمن اكتشفه، فهذا الباب يشرح لنا كيف تمكن المجرم من الهروب.. أيها المفتش!

أتاه الرد من الممر:

– أمرك يا سيدي.

– اطلب من السيد «شولتو» أن يأتي هنا.. من واجبي إخبارك يا سيد «شولتو» أن أي شيء ستقوله يمكن أن يؤخذ ضدك.. أنت مقبوض عليك باسم الملكة، لكونك وراء موت أخيك.

وهنا لم يتمالك الرجل الضئيل المسكين نفسه، فصاح وهو يقلب كفيه وينقل نظراته بيننا:

– أرأيتما؟ أخبرتكما أن هذا سيحدث!

قال له هولمز بهدوء:

– لا تقلق بشأن هذا الموضوع يا سيد «شولتو»، فأظن أنني سأستطيع أن أبرئك من تلك التهمة.

جاوبه الشرطي بحدة:

– لا تثق كثيرًا في هذا يا رجل النظريات! عليك ألا تقطع وعودًا لن تتمكن من تنفيذها، فربما كان الأمر أصعب مما تظن!

– لن أبرئه فقط يا سيد «أثيلني جونز»، بل أنوي أن أقدم لك كذلك اسم، وأوصاف أحد الرجلين اللذَين كانا في هذه الحجرة بالأمس على طبق من فضة، فأنا لدي الكثير من الأسباب التي تدفعني للاعتقاد أن اسمه «جوناثان سمول»، وهو رجل لم يتلقَ إلا قدرًا قليلًا من التعليم، ضئيل الجسد، ونشيط الحركة، خسرَ ساقه اليمنى، ويضع بدلًا عنها ساقًا خشبية.. وبالإضافة إلى ذلك فهو يرتدي حذاءً أيسر طويل الرقبة، بنعل قوي ذي مقدمة مربعة الشكل، وقد ثبَّت بكعبه طوقًا حديديًّا، وهو رجل بمنتصف العمر، وكان مسجونًا بفترة ما بحياته، إضافةً إلى أن جزءًا كبيرًا من جلد كفيه منزوع.. هذه الدلالات القليلة قد تساعدكم.. أما بخصوص الرجل الآخر.....

قاطعه «أثيلني جونز» بتهكم:

– وهناك رجل آخر كذلك؟ هذا عظيم..

لكن وبغض النظر عن سخريته فقد بدا منبهرًا بدقة أسلوب هولمز، الذي استدرك قائلًا:

– نعم هناك شخص آخر بالتأكيد، وهو شخص مثير للاهتمام للغاية، وكلي أمل أن أتمكن من تقديمهما لك بأقرب فرصة.. هل تسمح لي بكلمة على انفراد يا واتسون؟

ثم قادني لخارج الحجرة، عند قمة السلم، وهمس:

– هذا الحادث المفاجئ قد تسبب في تشتيت انتباهنا عن مهمتنا الأصلية.

أجبته:

– كنت أفكر في نفس الشيء، ولن يكون مناسبًا بقاء الآنسة «موريستان» بهذا البيت المشؤوم.

– بالفعل، يجب أن تصاحبها لبيتها؛ فهي تعيش مع مدام «سيسيل فوريستر» في «لوير كامبرويل»، المكان ليس بعيدًا عن هنا، سأنتظرك هنا حتى تعود، إلا إذا كنتَ مجهدًا ولا تستطيع هذا.

– مُطلقًا، فلا أظنني سأرتاح ما لم أعرف المزيد عن هذا الموضوع الغريب.. أعترف أنني رأيت مسبقًا ما هو مظلم وقاسٍ من الحياة، لكنني أقسم لك أنني لم أرَ ما وتَّرَني مثلما فعل كل هذا التتابع السريع

لكل تلك المفاجآت الغريبة التي رأيتها الليلة.. ومع هذا فأنا أرغب في المضي معك في الأمر حتى نهايته؛ بما أننا قد وصلنا لتلك النقطة بالفعل..

– عظيم.. وجودك سيساعدني كثيرًا؛ لأننا سنعمل على كشف غموض تلك القضية وحدنا، ونترك العزيز «جونز» يطارد السراب الذي يحبه.. بعدما تقوم بتوصيل الآنسة «موريستان» أريدك أن تتجه للبيت رقم 3 بشارع «بينشين لاين»، الواقع بالقرب من ضفة النهر في «لامبيث»، حيث ستجد في المنزل الثالث على الصف الأيمن رجلًا يعمل كمُحنِّط طيور يُدعى «شيرمان»، وستجد عند نافذته حيوان ابن عِرس يمسك بأرنب صغير.. أريدك أن تطرق الباب لتوقظه من نومه، وبلغ «شيرمان» العزيز تحياتي، وأخبره بأنني بحاجة لمساعدة «توبي» على الفور، ثم ستجلب «توبي» معك هنا.

– هل أفترض أن «توبي» هذا كلب؟

– نعم، هو كلب هجين له حاسة شم غير عادية.. والواقع أنني أفضل الاستعانة بمساعدة «توبي» العزيز عن الاستعانة بمساعدة قسم التحقيق بلندن برمته.

– سأجلبه هنا إذن.. إنها الواحدة الآن.. المفترض أن أتمكن من العودة قبل الثالثة، لو كان حظي حسنًا وصادفت حصانًا نشيطًا..

– وأنا سأحاول معرفة كل ما يمكنني معرفته من مدام «بيرنيستون» والخادم الهندي الذي أخبرني السيد «ثاديوس شولتو» أنه ينام في العليَّة المجاورة.. بعد هذا سأدرس ما يفعله «جونز» العزيز، وأستمع إلى تهكماته القاسية. لقد كان الأديب الألماني «جوته» فصيح اللسان حين قال: «اعتدنا على رؤية الناس تسخر مما لا يفهمونه!».

ونطق تلك الجملة الأخيرة بلغتها الألمانية الأصلية.

****

الفصل السابع

حادثة البرميل

استقللت سيارة الأجرة التي أتى بها رجال الشرطة؛ لأصطحب الآنسة «موريستان» لبيتها..

لاحظت أنها تواجه كافة المصاعب بذلك الأسلوب الرقيق الذي يميز بعض النساء، فتجدها هادئة الوجه متماسكة ما دام هناك من هو أضعف منها وبحاجة لدعمها.. كانت تجلس هادئة ثابتة الجنان بجوار مدبرة المنزل الخائفة.. لكنها في العربة أزالت ذلك القناع عنها، فامتقع وجهها في البداية، قبل أن تنفجر بنوبة من البكاء المتواصل، فقد أتعبتها كل تلك المغامرات الليلية كثيرًا.. فيما بعد أخبرتني أنها وجدتني على جانب كبير من البرود والتحفظ أثناء رحلة إيصالها هذه. فهي لم تدرك الصراع الدائر بداخلي، ولا كانت تعرف بالمجهود الذي بذلته لضبط نفسي؛ كي أمتنع عن الإفصاح بشعوري.. كان كلٌّ من تعاطفي وحبي يَصبُوان إليها كما فعلت يدي عندما كنا بالحديقة.. شعرت أن طبيعتها العذبة الشجاعة قد تجلت في أنظاري خلال ذلك اليوم المليء بالتجارب الغريبة التي لم تكن لتفعلها أعوام من التعاملات اليومية التقليدية..

منعت هاتان الفكرتان كلمات الحب من تخطي عتبة شفتاي، فقد شعرت أنها في حالة ضعف وعجز، وقد تشوش عقلها وتوترت أعصابها، بحيث سيكون بَوحِي بحبي لها في مثل هذه الظروف هو استغلال لما هي عليه من ضعف وهشاشة نفسية..

والأسوأ من كل هذا أنها غنية، فلو نجح هولمز في محاولاته، ستصبح تلك الفتاة وريثة لثروة ضخمة، فهل سيكون من الإنصاف أو المروءة أن يقوم جراح متواضع الحال مثلي باستغلال مثل تلك اللحظة العاطفية التي حدثت بالمصادفة البحتة؟ ألن أبدو لها بتلك الطريقة مجرد مستغل دنيء يبحث عن الثروة بأقصر الطرق؟ لم أرغب في المجازفة بأن تخطر مثل تلك الفكرة على بالها..

شعرت بكنز «آجرا» هذا يقف بيننا كسد منيع..

كانت عقارب الساعة تعانق الثانية صباحًا عندما وصلنا لبيت مدام «سيسيل فوريستر»، وقد خلد الخدم كلهم للنوم منذ فترة طويلة، لكن مدام «فوريستر» كانت شديدة الاهتمام بالرسالة الغريبة التي تلقتها الآنسة «موريستان» لدرجة أنها ظلت مستيقظة في انتظار عودتها.. فتحت لنا الباب بنفسها، وكانت امرأة لطيفة أنيقة في منتصف العمر، سررت لرؤية كيف أحاطت بذراعها خصر الفتاة برقة، وحيَّتها بصوت يمتلئ بحنان الأم.. كان من الواضح أنها لم تكن تعتبرها مجرد مخدومة لديها، وإنما تعتبرها صديقة جديرة بالاهتمام.. قدمتني الآنسة «موريستان» لها، فألحت المرأة على دخولي لأحكي لها تفاصيل مغامرتنا، لكنني أخبرتها أن ورائي بعض المهام لفعلها، ووعدتها بالمرور عليها فيما بعد؛ لأخبرها بأي تطورات حدثت في القضية.. اختلست النظر للخلف بينما العربة تبتعد، ولمحتهما وهما لا تزالان واقفتين عند عتبة الباب، سيدتان أنيقتان وقفتا وقد تشبثت إحداهما بالأخرى، والباب موارب من

خلفهما، بينما سطع ضوء الردهة في الخلف من وراء الزجاج المزخرف، وظهر مقياس ضغط جوي، وقضبان ثبتت سجادة السلم زاهية الألوان.. كان مشهدًا مريحًا للعين. لمحة عابرة ولو للحظات معدودات لبيت إنجليزي هادئ وسط تلك القضية الغامضة التي وجدنا أنفسنا فيها..

والغريب أنني كلما فكرت فيها أكثر وجدتها تزداد غموضًا.. وبينما انطلقت العربة وسط الشوارع الساكنة التي أضاءتها مصابيح الغاز، استعدت الأحداث الغريبة الأخيرة كلها.. لدينا المشكلة الأصلية، وقد اتضحت هذه على الأقل، وهي المتعلقة بموت النقيب «موريستان»، وإرسال تلك اللآلئ، والإعلان، والخطاب، فكل هذه الأحداث قد اتضحت لنا الآن وفهمناها بالكامل، لكن المشكلة أنها قادتنا لألغاز أعمق وأشد مأساوية، ألا وهي الكنز الهندي، والخريطة الغريبة التي عُثر عليها بين أمتعة النقيب «موريستان»، والمشهد الغريب الذي حدث أثناء وفاة الرائد «شولتو»، وإعادة اكتشاف الكنز من جديد، ثم وفاة مكتشفه المفاجِئة، والملابسات الغريبة التي صاحبت تلك الوفاة، من آثار أقدام، وأسلحة غير مألوفة، وتلك الكلمات المكتوبة على البطاقة التي تتوافق مع الكلمات المكتوبة على الخريطة التي كانت مع النقيب «موريستان»!

شعرت كأننا ندور في متاهة، ولا بد أن أي شخص لا يمتلك مثل ذكاء رفيقي بالسكن لم يكن ليعرف كيف يعثر على مفتاح يساعده على الوصول للحقيقة..

كان شارع «بينشين لاين» عبارة عن صف من البيوت المتآكلة ذات الطابقين، والمبنية من الطوب، في المنطقة الغربية من «لامبيث».. طرقتُ باب البيت رقم 3 لفترة طويلة قبل أن يستجيب لي أحد.. في النهاية لمحت وميض شمعة من وراء ستار النافذة العلوية، وسرعان ما ظهر وجه منها وأخذ يصيح:

– فلتذهب بعيدًا عن هنا أيها السكير المتشرد.. لو طرقت هذا الباب ثانية سأطلق عليك كلابي الثلاثة والأربعين!

– لا داعي لكل هذا العدد، فكل ما أحتاجه هو كلب واحد منها فقط.

هكذا أجبته، فصاح الصوت من جديد:

– يا للهول! قلت لك اذهب من هنا، لدي حية سامة في حقيبتي هذه، ولسوف ألقيها عليك لو لم ترحل حالًا!

صحت بإصرار:

– لكنني أرغب في كلب.

صرخ السيد «شيرمان»:

– كفى كلامًا! أمامك فرصة حتى أعد من واحد إلى ثلاثة، ثم سألقي فوقك الأفعى اللعينة!

هتفت به:

– لكن السيد «شيرلوك هولمز»......

بدا كأنما تلك الكلمات لها مفعول السحر، فقد أغلق الرجل النافذة في الحال، وخلال دقيقة كان الباب قد انفتح لي، ووقف السيد «شيرمان» من ورائه. كان عجوزًا نحيف الجسد، طويل القامة، محني

الكتفين، رقبته رفيعة، وقد استقرت فوق أنفه الطويل نظارة ذات زجاج أزرق اللون. قال يخاطبني:

- لِم لَم تقل هذا من قبل؟ إن أي صديق للسيد «شيرلوك هولمز» مرحب به هنا في أي وقت.. تفضل بالدخول يا سيدي، لكن أرجو أن تبقى بعيدًا عن القاقم، لأنه يعض أحيانًا.. هل تريد أن تعض هذا السيد أيها الخبيث؟

قال آخر جملة وهو ينظر نحو حيوان القاقم الذي برز برأسه الكريه وعينيه الحمراوين من بين قضبان قفصه..

- لا تهتم لأمر هذه، فهي مجرد حيَّة عمياء بلا أنياب، ولهذا أتركها تتجول في الغرفة؛ لتخلصني من الخنافس.. اغفر لي حدتي معك في البداية، فالأطفال الملاعين يضايقونني طيلة الوقت، ويأتي الكثيرون منهم ليقرعوا بابي ويوقظوني من نومي ويهربون.. ماذا كان يريد السيد «شيرلوك هولمز» يا سيدي؟

- يريد أحد كلابك.

- آه، بالتأكيد تقصد «توبي».

- صحيح، هو ذلك الاسم.

- «توبي» موجود في رقم 7 على اليسار.

قالها ثم مشى ببطء للأمام بين عائلة الحيوانات الغريبة التي أحاط نفسه بها، وقد أمسك بشمعته.. وفي ذلك الضوء الخافت رأيت الكثير من العيون اللامعة تختلس النظرات نحونا من كل جانب، وحتى عوارض السقف الخشبية المعلقة فوقنا اصطفت فوقها مجموعة من الطيور التي أخذت تغير وقفتها من قدم لأخرى في تكاسل بعد أن أزعجنا نومها..

لم يكن «توبي» العزيز إلا كلبًا بشع الخلقة ذا شعر طويل، عرفت أنه هجين من سلالتي «السبانييل» و«الجواس».. كان لونه مزيجًا من البني والأبيض، ذا مشية ثقيلة متهادية.. وبعد قليل من التردد تقبل مني قطعة سكر ناولني إياها صاحبه عالم الطبيعة العجوز، وبعد أن آلفني، تبعني للعربة ولم يظهر عليه أي اعتراض لمرافقتي..

****

كانت ساعة القصر تدق الثالثة صباحًا بالضبط عندما وجدت نفسي أمام منزل «بونديشتيري» من جديد.. عرفت أن الملاكم السابق المدعو «ماكموردو» قد قُبض عليه لأنه شريك في الجريمة، وسُحب إلى القسم مع السيد «ثاديوس».. كان هناك شرطيان يحرسان الباب الضيق، لكنهما سمحا لي بالمرور مع الكلب عندما ذكرت لهما اسم المحقق..

وجدت هولمز بالداخل وقد وقف عند الباب يدخن غليونه المفضل، ويداه في جيبيه.. قال عندما رآني:

- آه، أخيرًا وصلت به! كلب مطيع! لقد رحل السيد «أثيلني جونز».. أصابته نوبة نشاط مفاجئة بعد رحيلك، فلم يكتفِ باعتقاله لصديقنا «ثاديوس»، وإنما قام كذلك باعتقال حارس البوابة، ومدبرة المنزل، والخادم الهندي! هكذا صار المكان فارغًا إلا منَّا، ومن رقيب بالطابق العلوي.. اترك الكلب هنا وتعال معي للأعلى..

قمنا بربط «توبي» في إحدى سيقان منضدة الردهة، ثم صعدنا السلالم..

كانت الحجرة كما تركناها، باستثناء تغطية الجثة بملاءة، وباستثناء الرقيب الذي وقف بالركن وقد بدت عليه مظاهر التعب. قال رفيقي له:

– هل يمكنني استعارة مصباحك للحظات أيها الرقيب؟ والآن، قم بربط هذه البطاقة حول عنقي حتى تبقى أمامي طيلة الوقت، شكرًا لك.. والآن سأقوم بخلع كلٍّ من حذائي وجوربيَّ، خذهم معك للأسفل يا واتسون؛ فلسوف أقوم بالتسلق.. وسأغمس منديلي في هذا «الكيروزيت»، هذا سيؤدي الغرض، والآن أريدك أن تصعد معي للعليَّة لدقيقة.

دخلنا عبر الفتحة، فوجه هولمز مصباحه من جديد لآثار الأقدام المرتسمة على الغبار، فقال:

– هل هناك ما يلفت انتباهك بآثار الأقدام هذه بالذات أيها العزيز؟

– تبدو كأنها تعود لطفل، أو ربما امرأة ضئيلة الجسد؟

– بعيدًا عن نقطة الحجم، أهناك شيء آخر لفت انتباهك فيها؟

– هممم.. تبدو لي كأي آثار أقدام أخرى.

– خطأ! انظر هنا، هذا أثر قدم يمنى وسط الغبار.. والآن سأترك بجواره أثر قدمي الحافية، أخبرني ما هو الاختلاف الرئيس بينهما؟

– أن أصابع قدمك قريبة من بعضها، بينما أصابع القدم الأخرى متباعدة عن بعضها؟

– صحيح، هذا هو مقصدي.. ضع هذا في حسبانك.. والآن هلا تفضلت بالذهاب لتلك النافذة، وشممت رائحة إطارها الخشبي؟ سأبقى مكاني؛ لأني أحمل هذا المنديل الذي يحمل رائحة «الكيروزيت»..

قمت بما طلبه، ولاحظت على الفور رائحة نفاذة تشابه رائحة القطران!

– لقد وضع قدمه هنا وهو في طريقه للخروج من البيت.. ولو كان بوسعك أنت اقتفاء أثر الرائحة، فلا أظن أن هذا سيكون صعبًا على «توبي».. والآن انزل السلم وفك رباط الكلب، واستعد للاستعراض الذي سيحدث!

عندما وصلت إلى خارج المنزل، كان «شيرلوك هولمز» على السطح، ورأيته يزحف ببطء على الحافة كأنه دودة عملاقة متوهجة.. اختفى عن مجال بصري وراء صف من المداخن، ثم لم يلبث أن ظهر من جديد، قبل أن يختفي ثانية على الجانب المقابل.. وعندما وصلت هناك وجدته يجلس على إفريز جانبي.. صاح عندما رآني:

– هل هذا أنت يا واتسون؟

– نعم!

– هذا هو المكان.. ما هذا الشيء الأسود الموجود بالأسفل؟

– برميل مياه.

– وهل غطاؤه فوقه؟

– نعم.

– هل هناك أي أثر أمامك لسلم؟

– على الإطلاق.

– تبًّا لذلك الرجل! إنه مكان خطر للغاية! من المفترض أن أتمكن من النزول من حيث تسلق هو.. ماسورة المياه هذه تبدو قوية بما يكفي.. سأستغلها للنزول على أي حال..

ثم سمعت صوت احتكاكات أقدام، وسرعان ما بدأ المصباح ينزل بوتيرة ثابتة إلى جانب الحائط، وبوثبة رشيقة قفز فوق سطح البرميل، ثم نزل منه للأرض.. شرع في إعادة ارتداء جوربيه وحذائه وهو يقول:

– كان تتبعه سهلًا، لأن قِطعَ القرميد كانت متخلخلة على طول الطريق، بالإضافة إلى أنه أسقط هذا في خضم تعجله للرحيل.. وكما تقولون أيها الأطباء، فإن هذا يؤكد صحة تشخيصي..

كان الشيء الذي يقصده جِرابًا أو كيسًا منسوجًا من العشب الملون، والذي خيطت فوقه مجموعة من الخرز الرخيص.. كان بنفس حجم وشكل علبة السجائر، وبداخله استقرت أمامنا نصف دستة من الشوكات الخشبية الداكنة، التي لا تختلف عن تلك التي أصابت «بارثيلوميو شولتو» في رأسه، أحد طرفيها مسنونًا، والآخر مُدوَّرًا!

قال رفيقي:

– احترس حتى لا توخز نفسك بأحد تلك الأشياء الشيطانية! أنا سعيد لأنني عثرت عليها، لأنه غالبًا لا يملك غيرها، وبهذا لن نجد إحدى تلك الأشواك مغروسة في جلدنا فجأة؛ فأنا أفضل أن تصيبني رصاصة بندقية عادية على أن أصاب بإحدى تلك الأشواك.. هل بوسعك السير لمسافة ستة أميال يا واتسون؟

– أكيد.

هكذا أجبته، فسألني:

– هل ستتحمل ساقك؟ إذن، هيا يا «توبي» العجوز، شم هذا المنديل!

وأتبع جملته بأن قرب المنديل المغموس بالكيروزيت من أنف الكلب، الذي وقف مباعدًا بين أقدامه المغطاة بالفراء، ومال برأسه للجانب كأنه خبير يتشمم نبيذًا معتقًا، فبدا مظهره كوميديًّا.. بعد هذا رمى هولمز المنديل بعيدًا، وربط حبلًا قويًّا بطوق الكلب الهجين، قبل أن يقوده نحو قاعدة برميل المياه، فنبح الكلب بصوت عالٍ مضطرب، قبل أن ينطلق في أثر الرائحة –وقد خفض أنفه ليلاصق الأرض، ورفع ذيله في الهواء– بسرعة جعلت قيده مشدودًا، ودفعتنا للسير بأقصى سرعتنا وراءه.. بدأ الأفق يضيء تدريجيًا من جهة الشرق، فكشف بضوئه الرمادي الباهت تفاصيل الطريق الموجود أمامنا نوعًا ما..

تركنا المنزل المربع الضخم ذا النوافذ المظلمة الفارغة والجدران المرتفعة من خلفنا بائسًا مهجورًا، وتركنا الطريق يقودنا عبر الأراضي المحيطة بالبيت، وعبر الخنادق والحفر التي ملأت تلك الأراضي، فبدا المكان كله أطلالًا بائسة لا تختلف عن المنزل في شيء.. كان منظر المكان من حولنا يليق بالكامل مع تلك المأساة التي حدثت منذ ساعات داخل جدران البيت..

عندما وصلنا للسور، ووجدنا «توبي» ينطلق راكضًا بمحاذاته، وهو ينبح مبتهجًا، قبل أن يتوقف في النهاية عند زاوية حجبتها واحدة من أشجار الدردار الهزيلة.. رأينا بعض قطع الطوب المخلوعة من مكانها عند زاوية التقاء جدارين في السور، فبدت الشقوق المتخلفة عنها متآكلة ذات حافات مستديرة، وكأنها استعملت كسلم لفترة طويلة.. تسلقها هولمز أولًا، ثم ناولته الكلب فقام بإنزاله على الجانب الآخر.. بعد هذا صعدت بجواره فوق السور فسمعته يقول:

– ها هي بصمة الرجل ذي الساق الخشبية.. هل ترى بقعة الدم الصغيرة هذه التي لطخت الجبس الأبيض؟ لحسن الحظ لم تهطل أمطار غزيرة منذ البارحة؛ وإلا لاختفت آثار الرائحة من الطريق.. لكن ها هي لا تزال موجودة مع مرور ثمانٍ وعشرين ساعة على هروب الرجلين.

أعترف أن الشكوك تصاعدت بداخلي عندما فكرت في تأثير حركة المرور في شوارع لندن خلال تلك الفترة الزمنية على عملية المطاردة التي نقوم بها، لكن تلك الشكوك ذابت سريعًا مع رؤيتي لـ «توبي» العزيز وهو مستمر في سيره بنفس المشية المتهادية الغريبة دون تردد ولو للحظة.. واضح أن رائحة «الكيروزيت» القوية قد غطت على كل الروائح الأخرى بالمكان.. سمعت هولمز يقول:

– لا تعتقد أنني علقت نجاحي بحل هذه القضية على احتمالية أن أحد الرجلين قد وطأ بقدمه في تلك المادة فقط. فأنا أملك من المعلومات الآن ما يكفي لتعقبهما بعدة طرق أخرى.. لكنني أعترف أن هذه هي أسهل طريقة، وبما أن الحظ قد وضعها أمامنا، سأشعر بالذنب لو تجاهلتها.. على الأقل فقد ساعدت تلك الطريقة على منع تحول تلك القضية الغامضة لمشكلة تتطلب جهدًا ذهنيًّا كما ظهر لي في بدايتها.. ولولا هذا الدليل الدامغ لنسبت بعض الفضل لعقلي..

أجبته:

– لقد قام عقلك بما يكفي وزيادة، فأنا متأكد يا هولمز أن وسائلك في التوصل للنتائج دائمًا ما تبهرني، ربما أكثر حتى من جريمة قتل «جيفرسون هوب».. الموضوع يبدو لي هذه المرة أكثر تعقيدًا وغموضًا.. كيف تمكنت من وصف ذي الساق الخشبية بتلك الدقة مثلًا؟ الأمر مدهش!

– كان هذا شديد البساطة يا صديقي العزيز! لا أرغب في أن أبدو مسرحيًّا مملًا، لكن الموضوع كان شديد الوضوح؛ لقد علم الضابطان المسؤولان عن حراسة السجن بسر يتعلق بكنز مدفون. وقد قام رجل إنجليزي اسمه «جوناثان سمول» برسم خريطة لهما.. فكما تتذكر، قد رأينا اسمه على الخريطة التي وُجدت ضمن متعلقات النقيب «موريستان».. قام بالتوقيع على هذه الخريطة باسمه بالنيابة عن شركائه الثلاثة، وقد اختار اسمًا دراميًا هو «علامة الأربعة»! وبهذه الخريطة تمكن الضابطان، أو على الأقل أحدهما، من الحصول على الكنز، وأتى به لإنجلترا، لكن دون أن ينفذ الشرط الذي –في ظني– حصل على الخريطة تبعًا له.. لكنّ هناك سؤالًا مهمًّا وهو لماذا لم يستخرج «جوناثان سمول» الكنز بنفسه؟ الإجابة المنطقية هي أن تاريخ الخريطة يعود لوقت كان «موريستان» يعمل فيه مع المساجين، ولهذا لم يتمكن لا «جوناثان» ولا شركاؤه من استخراج الكنز بأنفسهم، لأنهم كانوا مسجونين، ولم يكن بوسعهم الهرب.

– لكن كل هذه مجرد تخمينات بلا دليل.

– لا، لأن هذه هي الفرضية الوحيدة المتماشية مع ما لدينا من حقائق.. فلنرَ كيف تتماشى مع باقي الأحداث. ظل الرائد «شولتو» يعيش في إنجلترا بسلام وسعادة وهو بصحبة الكنز للعديد من السنوات، ثم تلقى فجأة خطابًا أصابه بالرعب، فماذا تظن محتواه؟

– خطاب ينبئه أن الرجال الذين يُفترض أنه خانهم قد خرجوا من السجن؟

– بل الأقرب للمنطق أنهم هربوا، فلا بد أنه كان يعرف مدة عقوبتهم، ولم يكن خبر خروجهم ليفاجئه.. ماذا فعل بعد ذلك في ضوء ما لدينا من حقائق؟ بدأ يحمي نفسه من رجل أبيض ذي ساق خشبية، لأنه خلط بينه وبين تاجر أبيض بريء لدرجة إطلاق النار عليه.. والآن، ها هي الخريطة لا تحتوي إلا على اسم رجل أبيض واحد فقط، لأن باقي الأسماء لهندوس أو مسلمين؛ وهكذا نستطيع أن نقول بثقة أن الرجل ذا الساق الخشبية هو نفسه «جوناثان سمول» هذا.. هل يبدو هذا الاستدلال المنطقي مخطئًا في نظرك؟

– مطلقًا.. استمر..

– حسنًا.. فلنضع نفسينا الآن مكان «جوناثان سمول» هذا.. لقد أتى لإنجلترا، لكي يستعيد ما يعتبره حقه، وكذلك لينتقم ممن سلبه إياه.. توصل لمكان إقامة «شولتو»، وربما كان على تواصل مع أحد الموجودين بالمنزل، مثل «لال راو» رئيس الخدم الذي لم نقابله، لأن مدام «بيرنيستون» لو تتذكر قد وصفته بأنه شخص سيئ الخلق.. لكن المشكلة أن «جوناثان» لم يستطع التوصل لمكان الكنز، لأنه لا يعرفه أحد غير الرائد وخادمه المخلص الذي مات.. وفجأة يتنامى لمعرفة «جوناثان» أن الرائد على فراش الموت، ولأنه خاف أن يموت سر الكنز معه، فقد باغت الحارسين، وشق طريقه نحو نافذة الرجل المحتضر، لكن وجود ابنيه معه وقف حائلًا دون دخوله.. لكن غضبه الشديد من الرجل الميت دفعه لدخول غرفته في تلك الليلة وتفتيش أوراقه، أملًا في العثور على أي ملحوظات بخصوص مخبأ الكنز، وفي النهاية ترك تذكارًا بزيارته في صورة الكتابة الموجودة على البطاقة.. بالتأكيد كان ينوي ترك ملاحظة مشابهة على جثة الرائد لو أنه كان قد قتله، ليدل على أنها لم تكن جريمة قتل عادية، وإنما هي تحقيق للعدالة وانتصار للشركاء الأربعة الذين ظُلموا فيما مضى. تمتلئ سجلات الجرائم بمثل هذه الأفعال الغريبة، وعادة ما تقود للمجرم.. هل تتابع كلامي؟

– كل كلمة منه!

– عظيم، والآن فلنفكر فيما يمكن أن يفعله «جوناثان سمول»؟ لم يكن هناك مفر من مراقبة محاولات العثور على الكنز عن بُعد، وغالبًا كان يغادر إنجلترا ويعود لها من جديد كل فترة، ثم جاءت لحظة اكتشاف الكنز بحجرة العليَّة، فقام جاسوسه بإبلاغه بها على الفور، فلا مفر من التفكير بأنه كان لديه عميل داخل البيت.. عجز «جوناثان سمول» عن الوصول لغرفة «بارثيلوميو شولتو» العالية بسبب ساقه الخشبية، لهذا جلب معه شريكه الآخر الغريب، والذي تمكن من تخطي تلك النقطة، لكنه وطأ بقدمه العارية في مادة «الكيروزيت»، وهنا جاء دور «توبي» العزيز، ورحلة الستة أميال التي قطعها ضابط أعرج مصاب بقدمه.

– لكن معنى هذا أن الشريك الغامض هو من ارتكب جريمة القتل وليس «جوناثان»، صح؟

- صحيح، وأجرؤ على القول بأن ارتكاب تلك الجريمة قد أثار غضب «جوناثان»، وهو ما يظهر جليًّا في مشيته الغاضبة عندما دخل للحجرة، وهو شيء منطقي، لأنه لم يكن يحمل ضغينة تجاه «بارثيلوميو شولتو»، وإنما تجاه والده فقط، وكان سيُفضل تقييده مثلًا أو تكميم فمه، لكنه لم يكن راغبًا في قتله على الإطلاق. لكن سبق السيفُ العَذَلَ، فقد أطلق شريكه الغامض العنان لغرائزه الهمجية، وقام السمُّ بدوره سريعًا، ولم يعد بوسعه فعل شيء، لهذا ترك «جوناثان سمول» توقيعه المعتاد قبل أن يقوم بإنزال صندوق الكنز إلى الأرض وينزل من ورائه.. هذا هو التفسير المنطقي الوحيد لكل ما حدث في نظري.. وبخصوص شكله، ففي ظني أنه رجل بمنتصف العمر، ولا بد أن الشمس قد لوَّحت بشرته بعدما قضى فترة سجنه بمكان مرتفع الحرارة مثل جُزر «آندمان».. أما طوله فيمكن حسابه بسهولة عن طريق طول خطوته، كما نعلم أنه ملتحٍ، فغزارة شعر وجهه هي أكثر شيء لمحه «ثاديوس شولتو» عندما لمحه عبر النافذة لو تتذكر.. هذا هو كل ما لدي..

- وماذا عن شريكه؟

- هويته ليست لغزًا، قريبًا ستعرف عنه كل شيء.. هل لاحظت جمال نسيم الصباح؟ انظر كيف تطفو تلك السحابة الصغيرة كأنها ريشة زهرية اللون سقطت عن جسد طائر «فلامينجو» عملاق، بينما قرص الشمس الأحمر يشق طريقه بين زحام سحب لندن الكثيفة، فيشرق ضوءه على كل هؤلاء البشر، لكنني متأكد أن لا أحد منهم يضطلع بمهمة في غرابة مهمتنا هذه.. لكم أشعر بضآلة طموحاتنا وأفعالنا أمام قوى الطبيعة الخارقة! هل قرأت أعمال الكاتب الألماني «جان بول فريدريك ريختر»؟

- قرأت معظمها، فقد عرفته عن طريق «كارلايل».

- الأمر أشبه بتتبع مجرًى مائي صغير حتى البحيرة الرئيسة التي يخرج منها.. قرأت له ملحوظة غريبة نوعًا ما لكنها مهمة، يقول فيها أن أقوى دليل على عظمة البشري هو إدراكه لمدى ضآلته.. تلك المقولة تشير لعقد المقارنات بين المرء والآخرين، وحسن تقدير النفس، والتي بدورها تدل على نُبل الشخص.. هناك الكثير مما يدعو للتفكير في كلام «ريختر» هذا.. أخبرني، هل أحضرت مسدسك؟

- لا، لكن معي عصاي.

- ربما نحتاجها إذا وصلنا لمكانهم.. سأترك لك أمر «جوناثان سمول» هذا، وإذا تصرَّف شريكه الغامض بوحشية سأقوم بقتله!

وأتبع جملته بأن أخرج مسدسه، وألقم خزانته رصاصتين قبل أن يعيده لجيب معطفه الأيمن.

كنا نتبع خطوات «توبي» عبر الشوارع الريفية طيلة الوقت، وقد أحاطت بنا الفيلات من الجانبين، ثم لم نلبث أن وجدنا أنفسنا في شوارع رئيسة، رأينا عمال البناء وعمال الميناء وقد خرجوا لممارسة أعمالهم، بينما بدأت فتيات الليل في إسدال ستائر نوافذهن، وكنس مداخل بيوتهن.. أما الحانات الموجودة في الميدان عند الناصية، فقد بدأت تفتح أبوابها، والتي تدفق منها رجال قُساة المظهر وهم يمسحون لحاهم بأكمام معاطفهم بعدما حظوا بشرابهم الصباحي.. رأينا بعض الكلاب غريبة المنظر تتسكع وهي تحدق إلينا متعجبة أثناء مرورنا، لكن كلبنا المتميز «توبي» لم يلتفت لأي من هذا، وظل

منطلقًا في طريقه بينما أنفه لا يزال ملاصقًا للأرض، وهو ينبح بابتهاج من حين لآخر، مما دلنا على أنه وجد أثر رائحة قوية.

مررنا بالعديد من الأحياء مثل «ستريتهام»، و«بريكستون»، و«كامبرويل»، ثم وجدنا أنفسنا بشارع «كيننجتون لين»، بعدما تنقلنا عبر بعض الشوارع الجانبية التي تقع شرق الميدان البيضاوي.

بدا أن الرجلين اللذين نطاردهما قد أخذا طريقًا متعرجًا، غالبًا بنية الاحتجاب عن الأعين، لأنهما لم يلتزما قط بالسير في الطريق الرئيس ما دام هناك طريقٌ جانبي يقود لوجهتهما..

وفي نهاية شارع «كيننجتون لين» السالف الذكر اتجها يسارًا عبر شارع «بوند» وشارع «مايلز».. توقف رفيقنا «توبي» عند نقطة التقاء شارع «بوند» هذا مع «نايتس بليس»، وبدأ يجري جيئة وذهابًا وقد رفع إحدى أذنيه وأرخى الأخرى كما تفعل الكلاب حين يصيبهم التردد، ثم بدأ يدور وينظر نحونا من حين لآخر كما لو كان يستميحنا عذرًا، لأنه ارتكب خطأ ما.. وهنا هتف هولمز متذمرًا:

– ماذا أصاب هذا الكلب؟ بالتأكيد لم يركبا عربة أو يستقلا منطادًا!

قلت مفكرًا:

– ربما توقفا هنا لبعض الوقت؟

لكن رفيقي قال بارتياح مفاجئ:

– لا، فها هو ينطلق من جديد..

كان الكلب قد انطلق في طريقه مرة أخرى، وبعد أن ظل يتشمم محيطنا ثانية اتخذ قراره فجأة وانطلق بسرعة ونشاط أكثر من حاله السابق.. يبدو أن الرائحة صارت أقوى من السابق، لدرجة أنه لم يعد بحاجة لأن يقرب أنفه من الأرض، بل شد طوقه وهو منطلق بسرعة، ومن اللمعة التي ظهرت في عينَيْ هولمز عرفت أننا قد اقتربنا من نهاية رحلتنا المثيرة..

مررنا بمنطقة «ناين إلمز»، حتى وصلنا مخزن أخشاب «برودريك ونيلسون الكبير»، والذي يقع بعد حانة «النسر الأبيض»، وهنا اندفع الكلب بنوبة من الحماس المفاجئ عبر البوابة الجانبية داخل السياج، حيث رأينا ناشري الأخشاب قد بدؤوا في ممارسة عملهم حقًّا.. استمر الكلب يجري بين نشارة الخشب حتى وصلنا لزُقاق، قادنا لمر، أوصلنا لكومتين من الأخشاب، قبل أن يقفز الكلب وهو ينبح في انتصار فوق برميل ضخم كان لا يزال مكانه فوق العربة اليدوية التي حملته إلى هذا المكان..

وقف «توبي» فوق البرميل وقد تدلى لسانه وطرفت عيناه، وهو ينقل نظراته بيننا منتظرًا أي بادرة امتنان بعد أن وصل للهدف.. تلطخ جسم البرميل الخارجي، وعجلات العربة اليدوية بسائل داكن اللون، بينما فاحت رائحة «الكيروزيت» القوية في المكان..

نظر كل واحد منا لرفيقه في ذهول لثوانٍ، قبل أن ننفجر في نفس اللحظة في نوبة من الضحك الهيستيري!

****

الفصل الثامن

قوات شارع بيكر: غير الرسمية

– ماذا سنفعل الآن؟ واضح أن «توبي» قد فقد حاسته المميزة!

هكذا سألت هولمز في قنوط، فأجابني وهو يُنزل الكلب من فوق البرميل ليقوده إلى خارج مخزن الأخشاب:

– لقد تصرف حسب ما لديه من معطيات.. لو فكرنا في كمية «الكيروزيت» التي تُنقل عبر مدينة لندن يوميًا، فلن نندهش لمعرفة أن الأثر الذي نطارده قد تداخل مع أثر آخر، فقد انتشر استعماله هذه الأيام بشدة، خصوصًا لتجفيف الأخشاب، فلا يجب أن نلقي اللوم على «توبي» المسكين.

– إذن سيتوجب علينا العودة الآن لاقتفاء أثر صاحب الرائحة الأصلية؟

– أكيد، ولحسن الحظ أننا لن نضطر لقطع مسافة كبيرة، لأنه من الواضح أن الشيء الذي أربك الكلب يوجد عند ناصية «نايتس بليس» هو وجود أثرين مختلفين لنفس الرائحة، ويسيران باتجاهين متضادين.. وبما أننا قد تتبعنا الأثر الخاطئ، فلم يعد أمامنا إلا العودة واتباع الأثر الآخر!

لم تواجهنا صعوبة في فعل هذا، لأن «توبي» حينما قادنا للمكان الذي أخطأ عنده، أخذ يدور في دائرة واسعة للحظات، قبل أن ينطلق في النهاية في الاتجاه الجديد.. علقت بقولي:

– يجب أن ننتبه لكيلا ينتهي به الأمر وهو يقودنا للمكان الذي أتى منه برميل «الكيروزيت» الموجود فوق العربة!

– فكرت بهذا حقًّا، لكن لو نظرت ستلاحظ أنه يسير على الرصيف، بينما العربة التي نقلت البرميل كانت تسير على الطريق، غالب الظن أننا نتبع الرائحة الأصلية الآن!

قادنا لضفة النهر بين «بيلمونت بليس» وشارع «الأمير»، وعند نهاية شارع «برود» انطلق يجري حتى وصل لحافة المياه حيث يوجد رصيف لمرفأ خشبي صغير.

تبعنا «توبي» لحافة ذلك الرصيف، ثم وقف وأخذ ينبح وهو ينظر لتيار النهر الداكن الذي يمر من الأسفل.. علق هولمز:

– حظنا سيئ يا للأسف، لقد استقلا مركبًا من هذه النقطة!

تناثرت العديد من المراكب والقوارب الصغيرة على سطح الماء وعند حافة الرصيف، فقمنا بأخذ «توبي» لكل واحدٍ منها بالترتيب، ومع أنه أخذ يشم بهمة، فإنه لم يبدِ أي إشارة..

انتصب بيت صغير الحجم من الطوب بالقرب من رصيف المرسى البدائي، وقد عُلقت في نافذته الثانية لافتة خشبية كُتب عليها بحروف ضخمة «مورديكاي سميث»، وكُتب أسفلها «قوارب للإيجار بالساعة

أو باليوم».. وفوق الباب عُلقت لافتة أخرى كُتب فوقها أنهم يملكون زورقًا بخاريًا كذلك، وقد تأكدت تلك المعلومة بوجود كومة ضخمة من الفحم على الرصيف البحري...

أخذ هولمز يتلفت حوله ببطء، وقد ارتسم على وجهه تعبير يُنذر بالسوء وهو يقول:

– لا يبدو هذا جيدًا، فمن الواضح أنهما أذكى مما توقعت، وقد أخفيا آثارهما جيدًا.. أعتقد أن هذا قد حدث بترتيب سابق..

عندما اقترب من باب البيت انفتح ليخرج منه صبي صغير ذو شعر مجعد راكضًا، بينما انطلقت من ورائه سيدة بدينة محتقنة الوجه تمسك بيدها قطعة إسفنج كبيرة وهي تصرخ في الصبي:

– تعال هنا لتستحم يا «جاك»! تعال هنا أيها الشيطان! لو عاد والدك للمنزل ورآك هكذا سيتشاجر معنا!

قال هولمز بنعومة:

– يا لك من صبي لطيف شقي! هل هناك ما ترغب فيه يا «جاك»؟

– همم... أرغب في شلن!

هكذا رد عليه الصبي بعد تفكير. فسأله هولمز:

– ألا يوجد ما ترغب فيه أكثر من هذا؟

فكر الصبي الخبيث للحظات قبل أن يجيبه:

– حسنًا، ما أرغب فيه أكثر هو شلنان!

– هاك إذن، التقطه! يا له من صبي رائع يا مدام «سميث».

– فليباركك الرب يا سيدي.. إنه صبي رائع حقًّا، لكن أحيانًا يصبح من الصعب السيطرة عليه، خصوصًا عندما يغيب زوجي لأيام.

ظهرت خيبة الأمل جلية في صوت هولمز وهو يقول:

– هل السيد «سميث» في الخارج؟ لكم هذا مؤسف، فقد أردت التحدث معه.

– قد خرج منذ البارحة صباحًا يا سيدي، والحقيقة أنني بدأت أقلق عليه، لكن إذا كنتَ تريد التحدث معه بشأن أحد القوارب، فيسرني مساعدتك يا سيدي.

– في الواقع، كنت أرغب في استئجار الزورق البخاري.

– يا للأسف، لقد رحل بالزورق يا سيدي، وهذا هو ما يحيرني، لأنني أعرف أنه ما به من فحم لا يكاد يكفي إلا لرحلة ذهاب لمسافة لا تتعدى «وولويتش» ثم العودة منها، لو ذهب بمركب عادي لما قلقت؛ فكثيرًا ما خرج بمركب عادي، لقضاء بعض الأعمال التي تضطره للذهاب بعيدًا حتى «جرايفسيند»، ولو كان وراءه الكثير من العمل فإنه يضطر للمبيت هناك.. لكن فيم سينفعه الزورق لو نفد ما فيه من فحم؟

– ربما اشترى بعضه من أي رصيف آخر على النهر.

– لا أظن يا سيدي، لأن هذه ليست عادته، فقد اشتكى أمامي كثيرًا من غلو الأسعار التي يطلبونها مقابل بضعة أكياس هزيلة من الفحم.. كما أني بصراحة لم أشعر بالراحة تجاه ذلك الرجل ذي الساق الخشبية ووجهه القبيح، ولكنته الغريبة.. ماذا يريد منا بتردده علينا هكذا طيلة الوقت!

تظاهر هولمز بالدهشة وهو يسألها ببراءة:

– رجل ذو ساق خشبية؟

– نعم.. إنه رجل أسمر البشرة قبيح الخلقة، وقد أتى هنا كثيرًا ليقابل زوجي، بل إنه هو من أيقظه مساء ليلة البارحة، والأغرب أن زوجي كان يتوقع قدومه، لأنه كان قد أعد الزورق البخاري من قبلها.. لا أشعر بالاطمئنان تجاه الموضوع كله يا سيدي في الواقع..

هزَّ هولمز كتفيه وهو يجيبها:

– لا أظن أن هناك ما يستدعي الخوف يا مدام «سميث».. كيف عرفتِ من الأصل أن من أتى البارحة هو ذو الساق الخشبية نفسه؟ كيف تأكدتِ أنه هو؟

– من صوته يا سيدي؛ فأنا أعرف صوته جيدًا، صوته خشن أجش ومبحوح نوعًا ما، وقد قام بالطرق على النافذة نحو الساعة الثالثة وهو يهتف: «استيقظ يا رجل، فقد حان موعد تبديل نوبة الحراسة!» وهنا قام زوجي بإيقاظ ابننا الأكبر «جيم»، وغادرا دون أن يتبادلا معي ولو كلمة واحدة، ثم سمعت صوت احتكاك الساق الخشبية بالحجارة في الخارج..

– وهل كان ذو الساق الخشبية هذا بمفرده؟

– لست متأكدة من تلك النقطة، لكنني لم أسمع صوت أحد غيره على أي حال.

– معذرة يا مدام «سميث»، لكنني كنت أرغب باستئجار الزورق البخاري بالذات، وقد سمعت الكثير من الإطراء عن.... ماذا كان اسمه؟

– اسمه «أورورا» يا سيدي.

– آه، أهو ذلك الزورق القديم الأخضر ذو الخط الأصفر والمقدمة العريضة؟

– على الإطلاق يا سيدي، بل إنه في الواقع صغير الحجم ككل الزوارق الأخرى الموجودة هنا بالنهر، وقد تم طلاؤه حديثًا باللون الأسود وبه خطان أحمران..

– شكرًا لوقتك، وأتمنى أن يصلك خبرٌ قريبًا عن السيد «سميث».. سوف أبحر عبر النهر، ولو صادفت زورق «أورورا» فسأخبر زوجك أنك قلقة بشأنه.. قلتِ إن مدخنة «أورورا» هذه سوداء خالصة، أصحيح؟

– لا يا سيدي، بل سوداء وبها خط أبيض.

– آه، صحيح، فجوانبها هي السوداء اللون.. يوم سعيد مدام «سميث».. أرى مراكبيًّا معه زورق نهري هناك يا واتسون، فهيا بنا نستقله لعبور النهر.

****

وبينما نتخذ مجلسنا على ألواح الزورق قال هولمز:

– أهم نقطة عند تعاملك مع هذه النوعية من البشر ألا تدعهم يشعرون أبدًا بأهمية ما يخبرونك به من معلومات، لأنك لو فعلت، ستتحول شفاههم لمحار مغلق بإحكام، أما إن استمعت لهم بلا مبالاة كما فعلت أنا منذ لحظات، فستحصل على ما تبغيه غالبًا.

– أعتقد أن طريقنا اتضح الآن بعد ما عرفناه.

– ماذا تظن أننا يجب أن نفعل إذن؟

– نقوم باستئجار زورقًا بخاريًا وننطلق عبر النهر نبحث عن «أورورا» هذا طبعًا!

– لن تكون الأمور بتلك السهولة يا صديقي العزيز، فمن المحتمل أن يكون قد رسا به في أي من الأرصفة الكثيرة المنتشرة على ضفتي النهر من هنا وحتى «جرينويتش»، إن بها متاهة من المراسي التي تمتد لأميال أسفل الجسر، وربما تستغرق عملية البحث فيها كلها أيامًا لو فعلناها معتمدين على أنفسنا.

– فلنلجأ للشرطة إذن لتساعدنا!

– لا! سأقوم باستدعاء «أثيلني جونز» في آخر لحظة غالبًا.. أعرف أنه ليس شخصًا سيئًا، وبالتأكيد لا أريد أن أكون سببًا في شيء قد يضر بعمله.. كل ما في الأمر أنني أرغب في حل القضية بمفردي، بما أننا قد قطعنا هذا الشوط حقًّا.

– همم، هل نقوم بنشر إعلانًا نطلب فيه معلومات من أصحاب المرافئ الموجودة بالجوار؟

– هذا حل أسوأ! لأن الرجلين سيعرفان وقتها أننا نطاردهما، وربما يتركان إنجلترا بالكامل! الأغلب أنهما ينويان مغادرتها في كل الأحوال، ولكن ما داما يظنان أنهما في أمان فلن يتعجلا الرحيل.. كما أن مجهودات «جونز» العزيز ستعمل في صالحنا بخصوص تلك النقطة، لأن وجهة نظره في القضية ستجد طريقها للجرائد، وسيظن المجرمان أن الجميع يتبعون الأثر الخاطئ.

رسونا بتلك اللحظة بالقرب من إصلاحية «ميلبانك»، فسألته:

– وماذا سنفعل إذن؟

– سنأخذ تلك العربة ونعود للبيت، حيث سنتناول الإفطار ونحظى بقسط من النوم، لأننا سنخرج مرةً ثانية في المساء في الغالب.. توقف عند أي مكتب برقيات أيها السائق! سنحتفظ بـ «توبي» بالمناسبة، فقد نحتاجه ثانية.

توقفنا عند مكتب البريد الموجود بشارع «بيتر العظيم»، حيث قام هولمز بإرسال برقية، ثم سألني ونحن نستكمل رحلتنا:

– مَن في ظنك ذلك الذي أرسلت له البرقية؟

– ليس لدي أي فكرة.

– هل تتذكر قسم التحقيقات في شارع «بيكر»، الذي استعنت به في قضية «جيفرسون هوب»؟

– طبعًا.

هكذا أجبته ضاحكًا، فأجابني:

– ربما كانت مساعدتهم مفيدة للغاية بهذا النوع من القضايا.. ولو حدث وفشلوا، فلدي وسائل أخرى، ولكنني سأجرب حظي معهم أولًا.. كانت تلك البرقية للملازم الصغير المشاغب المدعو «ويجنز»، وأتوقع وصوله هو ومجموعته قبل أن ننتهي من تناول إفطارنا حتى!

كانت الساعة تشق طريقها بين الساعتين الثامنة والتاسعة، وقد شعرت بتأثير الأحداث المتلاحقة الأخيرة في تلك الليلة على جسدي، فأحسست بمزيج من الوهن والإرهاق، يصاحبه تشوش عقلي، وإجهاد جسدي.. لم أعد أشعر بنفس الحماسة المهنية التي تحرك رفيقي، ولا صرت أعدُّ الموضوع مجرد مشكلة منطقية مجردة؛ لأنني لم أسمع عن «بارثيلوميو شولتو» كلامًا جيدًا، وبالتالي لم أحمل ضغينة خاصة داخلي نحو قاتليه.. أما بخصوص موضوع الكنز، فالأمر مختلف، لأن هذا الكنز، أو جزءًا منه على الأقل، ينتمي للآنسة «موريستان».. وما دام هناك أمل في استعادته، فأنا على أتم الاستعداد لتكريس حياتي لتحقيق تلك الغاية.. صحيح أنني أدركت أننا لو صلنا للكنز فلن أنالها أبدًا، ولكن حبي لها سيكون أنانيًّا لو تركت تلك الفكرة تؤثر فيه.. فما دام هولمز يعمل بكل طاقته لإيجاد الجناة، فلدي دافع أقوى لبذل طاقتي في سبيل إيجاد الكنز..

عندما عدنا لمنزلنا بشارع «بيكر» قمت بالاستحمام وتغيير ملابسي، مما ساعدني كثيرًا على استعادة نشاطي وحيويتي، وعندما نزلت لحجرتنا وجدت الإفطار جاهزًا، وهولمز يصُبُّ القهوة.. وبمجرد أن رآني أدخل الحجرة هتف ضاحكًا وهو يشير لجريدة مفتوحة أمامه:

– لقد قام «جونز» المتحمس والمراسل الصحفي النشيط بإعداد الموضوع كله، ولكن لا بد أنك مللت من أخبار تلك القضية، وربما من الأفضل لو تتناول بعض البيض واللحم المقدد أولًا..

تناولت جريدة «الستراند» منه ومررت بعينيَّ على الخبر العاجل تحت عنوان «لغز غامض في ‹نوروود› الشمالية!»، وكان نص الخبر هو التالي:

«عُثر على جثة السيد «بارثيلوميو شولتو»، والذي يسكن في منزل «بونديشتيري»، نحو الساعة الثانية عشرة من مساء البارحة!

عُثرَ على جثة الفقيد في غرفته الخاصة، مع بعض الدلائل التي تشير إلى جريمة قتل!

حسب ما تناهى إلى علمنا، لا توجد أي آثار عنف على جثة الفقيد، لكن اختفت مجموعة ضخمة من المجوهرات الهندية الأصل التي ورثها الفقيد عن أبيه.. كان السيد «شيرلوك هولمز» والدكتور واتسون هما أول من اكتشف الجثة، وكانا يزوران المنزل بصحبة السيد «ثاديوس شولتو» شقيق القتيل.. لحسن الحظ كان عضو جهاز شرطة التحقيقات المعروف السيد «أثيلني جونز» موجودًا بقسم شرطة «نوروود»، وتمكن من الوصول لمسرح الجريمة خلال نصف ساعة من البلاغ الأول..

وبمجرد وصوله، قام عضو الشرطة المذكور بالتحقيق في الموضوع بقدراته الفائقة لسرعة اكتشاف الجناة، وهو البحث الذي جاء بنتائج مثمرة، انتهت بإلقاء القبض على الأخ «ثاديوس شولتو»، ومدبرة المنزل مدام «بيرنيستون»، وكذلك الخادم الهندي المدعو «لال راو»، ومعهم حارس البوابة ويُدعى «ماكموردو»..

كان من الواضح بجلاء أن اللص أو اللصوص الذين اقتحموا المنزل على دراية جيدة بخصائصه، لأن خبرة السيد «أثيلني جونز» المهنية التي يشتهر بها وقوة ملاحظته مكَّناه من أن يثبت بما لا يدع مجالًا للشك أن الجناة لا يمكن أن يكونوا قد دخلوا من الباب أو من النافذة، وأنهم لا بد وأن يكونوا قد تسلقوا الجدران حتى وصلوا لسقف المنزل، وتمكنوا من الدخول عبر باب أفقي لغرفة مُتصلة بتلك التي عُثر فيها على الجثة! ومثل هذه الحقيقة الأخيرة تثبت بحسم أنها لم تكن مجرد حادثة سرقة عرضية.. وقد أثبت رد فعل رجال القانون اليقظ والنشيط فائدة وجود عقل بارع ذكي في مواجهة مثل تلك الحالات.. ونحن نعتقد أن ذلك حُجة في وجه من يدعون إلى التقليل من أهمية محققينا، لكي يتمكنوا من العمل بفعالية وبالقرب من القضايا التي من الواجب على المحققين أن يعملوا عليها...»

– أليس مقالًا رائعًا؟ ما رأيك؟

قالها هولمز من خلف فنجان قهوته الذي أخفى الابتسامة العريضة التي زينت شفتيه، فأجبته:

– رأيي أننا نجونا بأعجوبة من أن يتم القبض علينا بتهمة التآمر على فعل تلك الجريمة مثل تعساء الحظ الباقين!

– وأنا أشاطرك الرأي، فأنا لا أضمن أننا سنظل في أمان لو أصابت جونز نوبة نشاط أخرى مماثلة.

وبمجرد أن أنهى عبارته حتى ارتفع رنين جرس الباب، وسمعت صوت صاحبة المنزل مدام «هادسون» وهي ترفع صوتها بعويل منزعج يدل على الاحتجاج.. استعددت للنهوض قائلًا:

– يا للسماء! يبدو أنهم سيقبضون علينا حقًّا يا هولمز!

– لا أظن الأمر بهذا السوء، إنما هذا هو جهاز الشرطة غير الرسمي الذي أخبرتك به قبلًا؛ قوات شارع «بيكر» غير الرسمية!

وبينما كان يتحدث، تعالى صوت أقدام حافية سريعة فوق درجات السلم، تبعها صوت ضجيج عالٍ، قبل أن تدخل علينا دزينة من الأطفال المتشردين، بثياب رثة متسخة، وعلى الرغم من دخولهم المزعج، فقد أظهروا قدرًا من النظام فيما بينهم، فاصطفوا سريعًا في صف واحد أمامنا، وأخذوا ينظرون إلينا بوجوه مترقبة..

تقدم واحد منهم للأمام، وكان أطولهم وأكبرهم سنًا، وقد بدا في تصرفاته قدر غريب من الكبرياء المضحك الذي لا يليق بمظهره على الإطلاق. قال الصبي:

– تلقيت رسالتك يا سيدي، وها قد أحضرتهم في الموعد المحدد. ثلاثة شلنات ونصف مقابل التذاكر.

ناوله هولمز بعض العملات المعدنية وهو يقول:

– تفضل، لكن فيما بعد يمكنهم إبلاغك بالتطورات، ثم تقوم أنت بإبلاغي بها يا «ويجينز»، فلا يصح أن تقوموا بغزو المنزل بهذه الطريقة، ومع ذلك فربما من الجيد أن حضرتم كلكم لتستمعوا للتعليمات.. أريد معرفة مكان زورق بخاري يُدعى «أورورا»، وصاحبه اسمه «مورديكاي سميث».. هذا الزورق أسود اللون بخطين أحمرين، وله مدخنة سوداء ذات خط أبيض، وهو في مكان ما بالنهر.. أريد أن يبقى

أحدكم عند مرسى «موردیكاي» أمام «ميلبانك» ليبلغني على الفور في حالة عودة الزورق.. قوموا بتقسيم العملية فيما بينكم، المهم أن تفتشوا الضفتين بدقة، وقوموا بإبلاغي بأي تطورات تحدث على الفور.. هل هذا واضح؟

– واضح أيها الزعيم.

هكذا أجابه «ويجينز» هذا، فأكمل هولمز:

– ستحصلون على الأجر المعتاد، ومن يجد الزورق له جنيه كامل مكافأة، وها هو أجر يوم مقدمًا.. والآن انطلقوا!

أعطى كلًّا منهم شلنًا، فانطلقوا ينزلون درجات السلم بسرعة، وبعد لحظات رأيتهم ينتشرون عبر الشارع كالجراد. نهض هولمز من وراء المنضدة وأشعل غليونه قائلًا:

– لو كان ذلك الزورق في مكان ما فوق سطح الماء سيجدونه حتمًا، فلديهم قدرة عجيبة على الوصول لكل مكان، ورؤية كل شيء، وسماع ما يدور بين الناس من أحاديث.. أتوقع منهم أن يخبروني بمكان الزورق قبل حلول الظلام.. وخلال هذا الوقت ليس بوسعنا فعل شيء غير انتظار النتائج، فليس بوسعنا التقاط طرف الخيط المقطوع حتى نضع أيدنا على زورق «أورورا» أو السيد «موردیكاي سميث».

– بوسع «توبي» التهام بقايا الطعام هذه.. هل ستذهب للنوم يا هولمز؟

– لا، فلست متعبًا لتلك الدرجة.. لكم هو غريب ذلك الجسد الذي أملكه، فأنا لا أذكر أنني شعرت بالتعب أبدًا من العمل، وإنما على العكس، الخمول هو ما يرهقني للغاية.. سوف أقوم بالتدخين قليلًا وأفكر بتلك القضية الغريبة التي جاءتنا بها عميلتنا الحسناء.. من المفترض أن تكون مهمتنا شديدة السهولة، فلا أظن أنه يوجد الكثيرون من ذوي الأرجل الخشبية، لكنني متأكد من أن شريكه الغامض رجل فريد من نوعه.

– ها قد عدت لذكر شريكه الغامض مجددًا!

– لا أحب أن أجعل منه لغزًا، على الأقل بالنسبة لك، لكن لا بد أنك قد كونت رأيًا معينًا عنه.. انظر لما لدينا من معلومات عنه: آثار أقدام صغيرة، وأصابع قدم لم توضع قط داخل حذاء، وأقدام حافية، وتلك الهراوة الخشبية ذات الرأس الحجري، وخفة حركته، والأسهم الصغيرة المسمومة، فماذا تستنتج من كل هذا؟

– رجل بدائي! ربما كان واحدًا من شركاء «جوناثان سمول» الهنود المذكورين بالخريطة!

هكذا هتفت مندهشًا، لكنه أحبطني بقوله:

– غير صحيح، غير أنني لا أنكر أنني فكرت بنفس الطريقة عندما رأيت آثار الأسلحة الغريبة، لكن شكل الأقدام الغريب هذا أجبرني على تغيير رأيي، فصحيح أن بعض سكان شبه الجزيرة الهندية رجال ذوو أجساد ضئيلة، لكن ليس لدرجة ترك آثار أقدام مثل هذه، فالهندوس الأصليون أقدامهم طويلة ونحيفة، أما المسلمون فينتعلون خفًا، وتكون إصبع قدمهم الكبيرة بعيدًا عن باقي الأصابع، لأن سير

الخف يمر عادة بينه وبينها.. وهناك طريقة واحدة فقط على حد علمي لإطلاق مثل تلك الأسهم الصغيرة؛ من أنبوبة نفخ.. أين يمكننا العثور على رجلنا البدائي الشرير هذا إذن؟

- أيكون من أمريكا الجنوبية؟

هكذا قلت مخمنًا، فمد يده لأعلى والتقط مجلدًا ضخم الحجم من فوق الرف وقال:

- هذا أول جزء من أحدث معجم جغرافي نُشر هذه الأيام، فلنرَ ماذا لدينا هنا؟ «تقع جزر ‹آندمان› على بُعد 340 ميلًا شمال «سومطرة» بخليج «البنغال».

ثم هناك الكثير من الثرثرة.. «مناخ رطب، وشعاب مرجانية، وأسماك قرش، ومدينة «بورت بلير»، وثكنات للمساجين، وجزيرة «روتلاند»، وأشجار الحور». آها، ها قد وصلنا للجزء المهم.. «بوسعنا اعتبار سكان جزر «آندمان» الأصليين هم السلالة الأصغر حجمًا على الأرض، مع أن بعضًا من علماء الأنثروبولوجيا يفضلون حجز هذا المنصب لقبائل «البوشمان» الإفريقية، أو قبائل هنود «ديجر» الأمريكية، أو سكان «تيرا ديل فويجو».. متوسط طول المرء هناك أقل من أربعة أقدام، لكن هناك بالغون طولهم أقل من ذلك حتى.. يتصفون بكونهم شعبًا شرس الطباع غير ودود وصعب المراس، لكن ما أن تحظى بثقته حتى تدرك أنك كونت صداقة قوية مخلصة معهم...»

تذكر كل هذا يا واتسون، والآن استمع للتالي «والجدير بالذكر أنهم شعب قبيح المظهر، برؤوسهم الضخمة غير منتظمة الشكل، وعيونهم الصغيرة الشرسة، وملامحهم المشوهة، بالإضافة لكون أيديهم وأقدامهم صغيرة الحجم جدًا.. كما أنهم شرسون متوحشون، لدرجة فشل جميع جهود المسؤولين البريطانيين لكسبهم في صفهم.. كما أنهم مصدر دائم للرعب لبحارة السفن الغارقة، فيقومون بضرب رؤوس الناجين منهم بهراواتهم ذات الرؤوس الحجرية، أو يطلقون نحوهم أسهم صغيرة مسمَّمة، ودائمًا ما تنتهي مثل تلك المذابح باحتفاليات تتضمن التهام لحوم ضحاياهم!»

ها قد رأيت كم هم قوم ودودون لطيفو المعشر يا واتسون! لو تُرِك ذلك الرجل للتصرف على هواه دون تدخل من أحد لاتخذت تلك القضية منحنًى أشد فظاعة.. أعتقد أن «جوناثان سمول» كان على استعداد للتضحية بالكثير مقابل عدم الاستعانة بهذا الرجل.

- لكن كيف انتهى به الأمر بصحبة شخص مثله؟

- يا للأسف لا أستطيع الإجابة عن سؤالك هذا. لقد عرفنا حقًّا أن «جوناثان» قد أتى من جزر «آندمان»، لهذا فليس من الغريب أن يصحب معه واحدًا من سكان تلك الجزيرة.. سنعرف كل التفاصيل في الوقت المناسب.. تبدو مرهقًا للغاية يا واتسون، فلم لا تتمدد على تلك الأريكة، ولنرَ ما إن كان بوسعي مساعدتك في الخلود للنوم.

قالها ثم التقط «الكمان» من ركن الغرفة، بينما استلقيت راقدًا، ثم بدأ يعزف لحنًا هادئًا عذبًا، وأعتقد أنه من تأليفه، لأن لديه موهبة شديدة في الارتجال.. أتذكر بشكل ضبابي أطرافه النحيلة، ووجهه الجاد الملامح، وقوس كمانه وهو يرتفع لأعلى قبل أن ينزل لأسفل، ثم شعرت بنفسي أطفو بعيدًا في سلام فوق أمواج بحر من الأنغام الهادئة، حتى وصلت لأرض الأحلام، حيث شاهدت فيها وجه «ماري موريستان» الحبيب ينظر نحوي..

❉❉❉❉

الفصل التاسع

الحلقة المفقودة

لم أستيقظ إلا في وقت متأخر بعد الظهيرة، وقد استعدت كامل قوتي ونشاطي، ورأيت «شيرلوك هولمز» يجلس كما كان بالضبط قبل نومي، لكنه لم يعد يمسك بالكمان، وإنما انشغل بقراءة كتاب ما.. نظر نحوي حينما تحركت، ولاحظت الحزن والاضطراب على صفحة وجهه.. وقال:

– كنت تغط بنوم عميق، خشيت أن نقلقك بحديثنا.

– لم أسمع شيئًا.. هل هناك أي أخبار جديدة؟

– لا، وأعترف أن هذا قد فاجئني وأحبطني، فقد توقعت أن يأتيني خبر مؤكد بحلول هذا الوقت.. لقد قدم «ويجينز» منذ قليل ليخبرني بما توصلوا له.. لم يجدوا أي أثر للزورق على الإطلاق. وهذا خبر مثير للضيق، لأن كل ساعة تمر لها أهميتها!

– هل أستطيع فعل شيء للمساعدة؟ لقد استعدت نشاطي الآن، وبوسعي الخروج في رحلة ليلية جديدة.

– لا، فليس هناك ما يمكننا فعله غير الانتظار، فلو خرجنا، ربما يأتي خبر مهم في غيابنا، وسيؤدي هذا لحدوث تأخير.. يمكنك أنت الخروج لو أردت، أما أنا فسأبقى هنا في الانتظار.

– سأذهب إذن لـ «كامبرويل» لأمر بمدام «سيسيل فوريستر»، فقد طلبت مني المرور بها بالأمس.

– مدام «سيسيل فوريستر» هي من تريد المرور بها؟

هكذا سألني هولمز وقد التمعت عيناه في خبث، فأجبت:

– حسنًا، أعترف، سأمر لرؤية الآنسة «موريستان» كذلك بالتأكيد، فقد كانتا متشوقتين لسماع الأخبار.

– أنصحك ألا تخبرهما بكل التفاصيل، فالنساء لسن جديرات بالثقة بالكامل، حتى أفضلهن خُلُقًا.

لم أفكر بجداله في وجهة نظره الشنيعة هذه، بل قلت:

– سأعود خلال ساعة أو ساعتين على الأكثر..

– حسنًا، حظ سعيد، لكن ما دمتَ ستعبر للجهة الأخرى من النهر، هلا تفضلت بإعادة «توبي» لصاحبه؟ فلا أظننا سنحتاجه بعد الآن.

وهكذا أعدت الكلب لصاحبه عالِم الطبيعة المقيم بمنزله في «بينشين لين»، وأعطيته نصف جنيه ذهبي كذلك..

****

أما في «كامبرويل» فقد وجدت الآنسة «موريستان» مرهقة نوعًا ما بسبب مغامرتنا ليلة أمس، لكنها كانت متشوقة لسماع آخر الأنباء، ومثلها كانت مدام «فوريستر».. تلوت على مسامعهما كل ما قمنا به، لكنني حذفت التفاصيل الشنيعة الخاصة بتلك المأساة، فمع أنني حكيت لهما عن موت السيد «شولتو»، إلا أنني لم أصف الطريقة التي مات بها بالتفصيل.. وبالرغم مما فعلته من حذف وتخفيف لملابسات الموقف، فقد ظل هناك ما يكفي للتسبب في إثارة دهشتهما وفزعهما. عندما انتهيت صاحت مدام «فوريستر»:

– يا للهول! تبدو كأنها قصة درامية! هناك امرأة في مأزق، وكنز قيمته نصف مليون جنيه إسترليني، وآكل لحوم بشر أسود البشرة، وشرير ذو ساق خشبية، وهذان الأخيران يحلان محل التنين أو الدوق الشرير في القصص التقليدية..

– وهناك كذلك فارسان شجاعان يتدخلان لإنقاذها.

هكذا أضافت الآنسة «موريستان» وهي تنظر نحوي بطرف عينها، فأكملت السيدة:

– بالفعل يا «ماري»، فمع أن حظك كله يعتمد على عملية البحث هذه، إلا أنني لا أراكِ متحمسة للموضوع بالدرجة الكافية.. تخيلي كيف سيكون حالك عندما تصبحين ثرية لتلك الدرجة، وقد ارتمى العالم كله تحت قدميك!

شعرت بالسرور نوعًا ما عندما لاحظت أنها لم تُبدِ أي علامة تدل على سعادتها لتحقق هذا الاحتمال، بل إنها على العكس رمت برأسها للخلف وكأن الموضوع كله لا يعنيها كثيرًا، قبل أن تُعلِّق:

– ما يثير قلقي حقًّا هو السيد «ثاديوس شولتو»! لا أبالي بأي شيء آخر، فلقد تصرف بلطف ونُبل شديدين منذ بداية الموضوع؛ لهذا أظن أن مِن واجبنا إبراء ذمته من تلك التهمة الشنيعة التي لا ذنب له فيها.

****

كان المساء قد أرخى سدوله حينما رحلت عن «كامبرويل»، والظلام قد خيم على كل الموجودات عندما وصلت للبيت.. وجدت كتاب رفيقي وغليونه بجانب كرسيه، لكنه لم يكن موجودًا بالحجرة.. نظرت من حولي أملًا في أن يكون قد ترك ملحوظة ما، لكنني لم أجد شيئًا من هذا.. عندما صعدت مدام «هادسون» لتُنزل الستائر بادرتها بالقول:

– لقد خرج السيد «شيرلوك هولمز» حسبما أرى، أصحيح؟

– لا يا سيدي، بل هو في حجرته..

ثم خفضت صوتها وهي تكمل بقلق:

– بصراحة يا سيدي، أنا قلقة على صحته.

– وما سبب قلقك هذا يا مدام «هادسون»؟

– حسنًا، إنه يتصرف بغرابة شديدة، فبعد أن غادرت أنت ظل يتمشى هنا وهناك حتى أتعبني صوت خطواته.. بعد هذا سمعت صوته وهو يتحدث مع نفسه، وكلما ارتفع رنين جرس الباب كان يخرج

ليقف عند أعلى السلم ويسألني: «من هناك يا مدام هادسون؟»، ثم يعود لحجرته، ويرتفع صوت خطواته يجوبها من شرقها لغربها من جديد.. أتمنى ألا تكون تلك علامات مرض يا سيدي، فقد تجرأت وقلت أمامه شيئًا عن الوصفات الشعبية للعلاج، فنظر نحوي بنظرة مخيفة أربكتني، لدرجة أنني لا أعرف كيف غادرت الحجرة وقتها..

أجبتها:

– ليس هناك ما يستدعي قلقك يا مدام «هادسون»، فقد رأيته يتصرف هكذا من قبل.. هناك موضوع معين يُشغله، وهو ما يجعله يتصرف بتلك الطريقة..

حاولت أن أجعل لهجتي مع صاحبة المنزل غير مكترثة إلى أقصى حد ممكن، لكن هذا لم يمنع قلقي أنا الآخر عليه عندما سمعت صوت خطواته الرتيب وهو يذرع الحجرة جيئة وذهابًا طيلة تلك الليلة الطويلة، وعرفت أن روحه النشيطة تثور ضد ذلك الخمول الذي أجبرتنا عليه الظروف..

بدا شديد الإرهاق والتعب أثناء تناولنا الإفطار في اليوم التالي، وقد احتقنت وجنتاه كالمحموم، فعلقت:

– أنت تُنهك نفسك بشدة أيها العجوز، لقد ظل صوت خطواتك يخترق أذني طيلة الليل.

– لم أتمكن من النوم، فذلك اللغز اللعين يستنفد طاقتي بالكامل، ولا أستطيع تحمل أن تعترض عقبة تافهة كهذه طريقي، بعدما تخطيت كل العقبات الأخرى! لقد تعرفت على هوية الرجلين، والزورق، وكل شيء، لكنني مع ذلك فشلت في الوصول لأي أنباء! قمت بالاستعانة بجهات أخرى لتشترك في عملية البحث، واستعملت كل ما هو متاح من وسائل أمامي.. تم تفتيش النهر كله من الضفة للضفة، لكن دون أن تردنا أي أخبار جديدة عنهما، ولم تصل مدام «سميث» هذه لأي شيء هي الأخرى عن زوجها.. لو ظل الأمر على هذا الحال لن يكون أمامي إلا استنتاج أنهم قد قاموا بإغراق الزورق، لكن هناك من الدلائل ما ينفي ذلك الاحتمال!

– أو ربما وضعتنا مدام «سميث» هذه على الطريق الخاطئ لسبب ما!

– لا، ليس هذا احتمالًا واردًا، فقد قمت ببعض التحريات التي عرفت منها أن هناك زورقًا بتلك المواصفات حقًّا.

– همم.. هل من المحتمل أن يكون قد ذهب في الاتجاه الآخر من النهر؟

– فكرت في هذا الاحتمال كذلك، وهناك فرقة بحث تمشط ذلك الاتجاه بدقة حتى منطقة «ريتشموند».. إذا لم تصلنا أخبار اليوم فسأذهب بنفسي غدًا، لكنني سأبحث عن الرجلين أنفسهما لا الزورق.. لكنني آمل أن تأتينا أي أخبار!

لكن هذا لم يحدث، فلم تصلنا أي أخبار من «ويجينز» ولا من الجهات الأخرى.. خرجت المقالات بمعظم الجرائد تتحدث عن مأساة «نوروود»، وقد اتخذت جميعها نبرة معادية للمسكين «ثاديوس شولتو»، لكن دون أن تذكر إحداها أي تفاصيل جديدة، باستثناء أن هناك تحقيقًا سيتم في اليوم التالي..

ذهبت إلى «كامبرويل» بالمساء لأقوم بإبلاغ السيدتين بأننا لم نتمكن من إحراز أي تقدم، وعندما عدت وجدت رفيقي هولمز باديًا الغم والوجوم، وكان بالكاد يرد على أسئلتي، وظل منشغلًا طيلة الأمسية

ببعض التجارب الكيميائية المعقدة التي تضمنت تسخين بعض أوعية التقطير، وتقطير بعض الأبخرة، لتنتهي بتصاعد رائحة شنيعة دفعتني للهروب من الشقة.. ظللت أسمع صليل أنابيب الاختبار حتى ساعات الصباح الأولى، مما أعلمني أنه لا يزال منشغلًا بتلك التجارب كريهة الرائحة!

استيقظت في الصباح الباكر مفزوعًا، لأندهش بوجوده واقفًا بجانب فراشي، وقد ارتدى زي بحار بسيط، وسترة من الصوف، وقد التحف بوشاح أحمر خشن حول عنقه.. قال:

– سأذهب للنهر يا واتسون.. لقد فكرت بالأمر كثيرًا ولا أرى إلا حلًّا واحدًا.. على كل حال فالموضوع يستحق التجربة.

– هل تريدني أن آتي معك؟

هكذا سألته، فأجابني:

– لا، وجودك هنا بالنيابة عني سيكون أكثر فائدة لي، أنا لا أريد الذهاب أصلًا، لأنني أتوقع وصول رسالة لي خلال اليوم، فمع أن «ويجينز» كان فاقد الأمل من هذا بالأمس.. أريدك أن تقوم بفتح كل البرقيات والملاحظات التي تصل باسمي، وتتصرف حسبما تراه صحيحًا عند وصول أي أخبار.. أيمكنني الاعتماد عليك في هذا؟

– أكيد.

– يا للأسف، لن تتمكن يا عزيزي من إرسال برقية تخبرني فيها بما يحدث لأنني لازلت لا أعرف إلى أين سأذهب بالضبط، لكن لو كنت محظوظًا فلن أغيب في الخارج لمدة طويلة، وسأكون عندها قد توصلت لمعلومات من أي نوع قبل عودتي..

لم تكن قد وصلتني منه أي أخبار حتى موعد الإفطار، وعندما تصفحت جريدة «الستراند» وجدتهم يذكرون الموضوع بمقالة كان نصها: «أما فيما يتعلق بمأساة ‹نوروود› الشمالية، فإن لدينا ما يدفعنا للاعتقاد بأن الموضوع سيأخذ منحنى أكثر تعقيدًا وغموضًا مما اعتقدنا في البداية، فقد ظهرت بعض الأدلة الجديدة التي تشير لاستحالة احتمالية أن السيد «ثاديوس شولتو» له يد في الموضوع، وقد أُطلق سراحه هو ومدبرة المنزل مدام «بيرنيستون» مساء الأمس، لكنّ هناك اعتقادًا أن الشرطة لديها أدلة ستقودها للجناة الحقيقيين، وأن السيد «أثيلني جونز» من السكوتلانديارد يقوم بتتبعها بالنشاط والسرعة المعروفين عنه.. ونختم مقالنا بالإشارة إلى أنه من المتوقع أن تحدث عملية اعتقال جديدة بأي لحظة!»

قلت لنفسي أنه خبر مُرضٍ على نحو ما، فعلى الأقل أطلق سراح صديقنا «ثاديوس» وصار بأمان.. لكن ما هو هذا الدليل الجديد، فمع أن هذا الكلام يتكرر في كل مرة ترتكب فيها الشرطة خطأً فادحًا.. لكن في اللحظة التي رميت فيها الجريدة فوق المنضدة، لمحت إعلانًا في عمود الإعلانات الشخصية، وكان نصه:

«مفقود! غادر المراكبي «مورديكاي سميث» وابنه «جيم» مرفأ «سميث» نحو الساعة الثالثة صباح يوم الثلاثاء الماضي، بزورق بخاري اسمه «أورورا»، وهو زورق أسود اللون وبه خطان باللون الأحمر، أما مدخنته فسوداء اللون وبها خط أبيض.. هناك مكافأة تُقدر بخمسة جنيهات كاملة ستُعطى لمن

يتمكن من الإدلاء بأي معلومات عن مكان «مورديكاي سميث» والزورق «أورورا» لمدام «سميث» عند رصيف مرفأ «سميث»، أو في العنوان الكائن في 221 ب شارع «بيكر»!

من الواضح أن هولمز هو من فعل هذا؛ فوجود عنوان شارع «بيكر» كافيًا لإثبات هذا، وقد بدت لي فكرة عبقرية، فحتى لو تصادف وقرأ المجرمون الهاربون هذا الإعلان فلن يروا فيه أكثر من رد فعل زوجة قلقة على زوجها المختفي..

****

مرت ساعات النهار ببطء شديد، كلما سمعت صوت طرقات على الباب أو صوت خطوات ثقيلة في الشارع أتخيل إما أنه هولمز وقد عاد أخيرًا، أو أن أحدهم قد جاء ردًا على الإعلان الذي نشره..

حاولت أن أشغل نفسي بالقراءة، لكن عقلي ظل يشرد بالتفكير في مهمتنا الغريبة هذه، أو في المجرمين الغريبين اللذين نبحث عنهما.. تساءلت عن احتمالية وجود خطأ ما في الاستدلالات المنطقية التي بنى عليها هولمز نظريته، وهل من الممكن أن يكون قد وقع ضحية لخداع النفس؟ ألا يمكن أن يكون عقله الذكي قد قام ببناء تلك النظرية الجامحة على فرضيات خاطئة بالكامل؟ صحيح أنني لم أره يُخطئ من قبل، لكن لكل جواد كبوة.. فهل من الممكن أن تكون هذه هي كبوته؟

ربما يكون قد أخطأ لأنه يتحرى الدقة الزائدة في تحليلاته، ولأنه يريد أن يصيغ تفسيرًا معقدًا وغريبًا، حتى لو كان هناك تفسير عادي وبسيط أمام عينيه.. لكنني من الجهة الأخرى رأيت الأدلة بنفسي، وسمعت منه الحجج المنطقية التي بنى عليها استنتاجاته.. وحينما أستعيد سلسلة الملابسات الطويلة الغريبة، والتي يبدو أكثرها تافهًا، لكنها كلها تسبح بنفس الاتجاه، لا أقوى على إنكار أنه، حتى لو كان تفسير هولمز خاطئًا فلا بد أن التفسير الحقيقي لا يقل عنه غرابة وجموحًا!

رن جرس الباب في الساعة الثالثة، قبل أن أسمع صوت آمر يرتفع بالردهة، ثم وجدت السيد «أثيلني جونز» يصعد!

اندهشت من مجيئه، واندهشت أكثر من مظهره، فقد بدا مختلفًا بالكامل عن الرجل البارع الحاد الذي تولى القضية في «نوروود» الشمالية، فصار مغتمًّا، لدرجة أن أسلوبه بدا اعتذارًا..

– عمت مساء يا سيدي.. هل السيد «شيرلوك هولمز» هنا؟

– يا للأسف لا، ولا أعلم متى سيعود، لكن بوسعك انتظاره هنا إن رغبت.. تفضل بالجلوس هنا، وجرب هذا السيجار.

مسح وجهه بمنديل أحمر ضخم وهو يقبل عرضي شاكرًا:

– شكرًا لك.. لا مانع لدي.

– هل تحب تناول بعض الويسكي الممزوج بالصودا؟

– موافق، فالجو شديد الحرارة مع أننا في هذا الوقت من السنة، لكن نصف كوب فقط، فلدي الكثير مما يشغل بالي.. أنت تعرف نظريتي بخصوص قضية «نوروود» الشمالية، أليس كذلك؟

– أتذكر أنك طرحت واحدة أمامنا يومها.

– حسنًا، لقد أجبروني على إعادة التفكير فيها.. لم أكد أُضيق شباكي حول السيد «شولتو» حتى نفذ من خلال ثقب فيها، فقد أخرج حجة غياب لا تقبل الشك، فمنذ غادر غرفة أخيه لم يغب عن نظر شخص أو اثنين، لهذا لا يمكن أن يكون هو من تسلق للسطح ودخل عبر الباب الأفقي.. هذه القضية شديدة الغموض، وتضع سُمعتي المهنية كلها على المحك! لهذا سيسرني الحصول على بعض المساعدة.

– جميعنا نحتاج لبعض المساعدة في بعض الأوقات.

هكذا أجبته مبتسمًا بلطف، فقال بصوت أجش مكتوم:

– صديقك السيد «شيرلوك هولمز» رجل مدهش، فهو لا يقبل الهزيمة.. لقد رأيته يتولى العديد من القضايا، ولم أره يفشل في حل أي واحدة منها.. لديه وسائل غير عادية، ربما يكون متسرعًا نوعًا ما في تكوين نظرياته، لكن بالمجمل أعتقد أنه بوسعه أن يصبح ضابطًا واعدًا، وليس عندي مانع أن أُصرح بهذا الرأي أمام أي أحد! تلقيت منه برقية هذا الصباح، ومما فهمته منها أنه توصل لدليل ما في قضية «شولتو» هذه.. انتظر، ها هي البرقية.

وأتبع جملته بأن أخرج البرقية من جيبه وناولني إياها..

كانت مرسلة من منطقة «بوبلار» في الساعة الثانية عشرة، وتقول:

«اذهب لعنوان شارع بيكر في الحال، وإذا لم تجدني هناك انتظرني.. لقد اقتربت من الوصول لعصابة قضية شولتو.. بوسعك المجيء معنا الليلة لو أردت أن تكون موجودًا في مشهد النهاية!»

علقت:

– هذا جيد، يبدو أنه وجد طرف الخيط من جديد.

علق جونز بتعجب لم يخف ما بداخله من رضا:

– إذن فقد أخطأ هو الآخر.. حتى أفضل الرجال بيننا يخطؤون من وقت لآخر.. طبعًا قد يكون هذا إنذارًا خاطئًا، لكن واجبي كرجل قانون ألا أدع أي فرصة تفلت من تحت يدي.. هناك من بالباب، ربما هو!

سمعنا صوت خطوات ثقيلة تصعد درجات السلم، تبعها صوت حشرجة أنفاس عالية دلتنا على مدى ما يواجهه صاحب الخطوات من صعوبة في التقاط أنفاسه.. توقف الصوت لمرة أو اثنتين، مما دل على صعوبة الصعود عليه، لكنه وصل في النهاية للباب ودخل.

كان مظهره الخارجي ملائمًا لتلك الأصوات الغريبة التي سمعناها أثناء صعوده، فقد كان رجلًا عجوزًا، يرتدي معطف بحار، وسُترة عتيقة، مغلقة الأزرار حتى ياقتها، محني الظهر، بينما أخذت ركبتاه ترتعدان، وأخذ يلتقط أنفاسه بصعوبة شديدة.. كان يستند على عصا من خشب البلوط، وقد رفع كتفيه بصعوبة، محاولًا دفع المزيد من الهواء نحو رئتيه.. يرتدي وشاحًا ملونًا حول رقبته، لا يظهر من وجهه إلا عينان سوداوان لامعتان يعلوهما حاجبان أبيضان ثقيلان، ويجاورهما سالفان رماديان طويلان.. بدا كبحار محنك مهيب انتصر عليه الزمن والفقر، فجعلاه يبدو هكذا.. سألته:

– كيف يمكنني مساعدتك يا سيدي؟

أخذ ينظر حوله ببطء كعادة المسنين قبل أن يقول:

– هل السيد «شيرلوك هولمز» هنا؟

– لا، لكنني أنوب عنه في الوقت الحالي، وبوسعك إخباري أي رسالة تود إيصالها له.

– لا! يجب أن أوصلها له شخصيًا!

– لكنني أخبرتك أنه تركني نائبًا عنه.. هل يتعلق الموضوع بزورق السيد «مورديكاي سميث»؟

– نعم، فأنا أعرف مكانه! وأعلم كذلك مكان الرجلين اللذين يبحث عنهما، كما أعرف مكان الكنز.. أعرف كل شيء بخصوص الموضوع!

– إذن أخبرني بما لديك من معلومات وسأحرص على إيصالها له كاملة.

– لا، يجب أن أخبره بنفسي!

هكذا كرر بإصرار كبار السن في عصبية، فقلت له:

– ستضطر لانتظاره معنا إذن حتى يعود.

– لا! لن أضيع يومًا كاملًا لأجل أحد.. لو لم يكن السيد هولمز موجودًا، فبوسعه اكتشاف كل هذا بنفسه.. أنا لا أعرف أيكما ولن أتفوه بحرف!

وأتبع جملته بأن سحب قدميه نحو الباب، لكن السيد «أثيلني جونز» سبقه وسد طريقه قائلًا:

– فلتنتظر قليلًا يا سيدي، فأنت لديك الكثير من المعلومات المهمة ولا يمكن أن نتركك تنصرف.. ستبقى هنا سواء بموافقتك أو لا حتى يعود!

حاول العجوز أن يزيد من سرعته بعض الشيء ليصل للباب، لكن عندما استند «أثيلني جونز» بظهره العريض عليه استوعب العجوز أنه لا فائدة من المقاومة، فأخذ يخبط الأرض بعصاه بعصبية وهو يدمدم:

– ما هذه المعاملة الشنيعة! لقد ظننت أنني أتيت هنا لمقابلة رجل محترم! وها أنتما تحتجزانني بالقوة بينما أنا لم أركما في حياتي من قبل! كيف تعاملانني هكذا؟

حاولت تهدئته بقولي:

– لا تقلق يا سيدي فلن يصيبك سوء، ولسوف نقوم بتعويضك عما ضاع من وقتك.. تفضل بالجلوس على هذه الأريكة وأعدك أنك لن تضطر للانتظار طويلًا..

سار العجوز عابسًا نحو الأريكة وجلس فوقها، وقد دفن وجهه بين راحتيه، بينما استمررت أنا و«أثيلني جونز» في التدخين والحديث.. فارتفع فجأة صوت هولمز يقاطعنا قائلًا:

– كان بوسعك تقديم سيجارًا لي أنا الآخر على الأقل!

انتفضنا أنا و«أثيلني» في مكانينا؛ فقد وجدنا هولمز يجلس بالقرب منا فجأة وقد بدا عليه أشد السرور والاستمتاع. هتفت متعجبًا:

– هولمز! كيف ظهرت؟ وأين ذهب ذلك العجوز؟

أجابني وهو يرفع كومة من الشعر الأبيض أمامنا:

– ها هو العجوز، وها هو الشعر المستعار، والسالفان والحاجبان وكل شيء.. أعرف أَنَّ تَنَكُّرِي لا بأس به، لكنني لم أتوقع أن يخدعكما لهذا الحد.

هتف «جونز» بسرور هو الآخر:

– يا لك من خبيث! كان بوسعك أن تصبح ممثلًا رائعًا، فقد تمكنت من تقليد سعال من يقيمون بملاجئ الفقراء بالضبط، كما أنك قلدت مشيته البطيئة الواهنة ببراعة، لدرجة أن من يراك لن يتردد في صرف مكافأة عشرة جنيهات في الأسبوع لك! ولكنني تعرفت على لمعة عينيك، ولم تفلت منا بتلك السهولة.

أشعل سيجارًا وهو يجيبه:

– كنت عاكفًا على إتقان هذا التنكر طيلة اليوم، فكما تعرفان، لقد عرفتني معظم الجماعات الإجرامية، خاصة بعدما قام صديقي هذا بنشر بعض القضايا التي اضطلعت بها، لهذا ليس بوسعي النزول لساحة المعركة إلا بالقيام بتنكر بسيط مثل هذا.. هل وصلتك برقيتي يا «أثيلني»؟

– نعم، ولهذا السبب أتيت.

– إلام توصلت بقضيتك؟

– لا شيء! لقد اضطررت للإفراج عن سجينين من الأربعة، وأخشى أنه ليس لدي أي أدلة تدين الاثنين الباقيين!

– لا داعي للقلق، فسنعطيك سجينين آخرين مكانهما، لكن يجب أن تنفذ أوامري بالحرف.. بوسعك نسب الفضل كله لنفسك رسميًّا فيما بعد، لكن المهم أن تتصرف الآن كما أقول لك، متفقين؟

– أكيد، ما دمت ستساعدني في القبض على المجرمين.

– عظيم.. أولًا أريد أن يكون هناك زورق شرطة بخاري سريع عند سلالم مرفأ «ويستمينيستر» في الساعة السابعة تمامًا.

– هذا سهل، لأنه يوجد زورق بذلك المكان طيلة الوقت، لكنني سأعبر الشارع لأقوم بمكالمة هاتفية وأتأكد.

– وكذلك أريد رجلين قويين لنكون جاهزين في حالة حدوث مقاومة.

– سأحرص على وجود رجلين أو ثلاثة بالزورق.. ماذا تحتاج غير هذا؟

– عندما يتم القبض على المجرمين، سنأخذ الكنز. وأعتقد أن رفيقي هذا سيسعده أن يصطحب صندوق الكنز للشابة صاحبة الحق في نصفه، لتكون هي أول من يقوم بفتحه.. هل توافق على هذا يا واتسون؟

– سأكون مسرورًا لفعل هذا.

هز «أثيلني جونز» رأسه مجيبًا:

– الواقع أن هذا إجراء غير معتاد، لكن بما أن القضية كلها غير عادية، فأعتقد أن بإمكاني السماح بهذا، لكن بعد ذلك سيتوجب عليكم تسليم الكنز للسلطات حتى يتم الانتهاء من التحقيق، اتفقنا؟

– طبعًا.. هناك نقطة واحدة أخيرة، أريد سماع بعض تفاصيل الموضوع من «جوناثان سمول» نفسه، فأنا كما تعرف أُفضل اكتشاف أدق تفاصيل قضاياي.. لا أظنك ستمانع لو قمت بمقابلة غير رسمية معه، سواء في شقتي هذه أو بأي مكان آخر ما دام سيكون تحت الحراسة المشددة، حسنًا؟

– حسنًا.. أنت تمسك زمام الموقف.. فأنا لا أملك أقل دليل على وجود «جوناثان سمول» هذا من الأصل، لكن لو تمكنت أنت من الإمساك به، فليس لدي أي مانع أن تقوم بتلك المقابلة معه.

– اتفقنا إذن على كل التفاصيل؟

– اتفقنا.. ألديك أي طلبات أخرى؟

– طلب واحد أخير، وهو أن تتناول معنا العشاء، فسيكون جاهزًا في غضون نصف ساعة على الأكثر.. سيكون هناك محار وزوج من طيور الطهيوج، وبعض النبيذ الأبيض.. لم تتعرف على مهاراتي كرب منزل بعد يا واتسون!

****

الفصل العاشر

نهاية الرجل القادم من الجزيرة

استمتعت بوجبتنا، فالواقع أن هولمز لديه مقدرة فذة في أن يتحول ليصبح متحدثًا لبقًا متى أراد هذا، وهو ما أراده بتلك الليلة..

بدا كمن يتمتع بنشاط ذهني عالٍ بتلك الجلسة، يتحدث ببراعة منقطعة النظير بطريقة لم أعهدها فيه قبلًا.. أخذ يتحدث في الكثير من المواضيع المتنوعة، فتارة يتحدث عن المسرحيات، وتارة عن الخزف بالعصور الوسطى، وتارة أخرى يتكلم عن آلات الكمان التي صنعها «ستراديفاريوس»، قبل أن ينتقل بدفة الحديث ليتناول البوذية في «سيلان»، ثم سفن الحرب، والواقع أنه تحدث عن كل موضوع بدقة كمن درسه بتعمق.. لاحظت أن حسه الفكاهي السريع قد محا حالة الاكتئاب العميقة التي سيطرت عليه في الأيام الأخيرة..

كما اتضح أن «أثيلني جونز» ليس بالرجل السيئ، فقد أثبت أنه رجل اجتماعي لا بأس به خارج أوقات العمل الرسمية، وأخذ يتعامل مع طعام العشاء بحس ذواق خبير.. أما بخصوصي أنا، فقد شعرت بسرور لفكرة أن مهمتنا قد شارفت على نهايتها، وأصابتني عدوى هولمز بالسعادة..

لم يتناول أحدنا أثناء العشاء الموضوع الذي اجتمعنا من أجله من الأصل، وبعد أن رُفعت الأطباق من فوق المنضدة التفت هولمز لساعته، قبل أن يقوم بصب ثلاث كؤوس من النبيذ الفاخر لثلاثتنا قائلًا:

– هذا نخب نجاح مهمتنا الصغيرة.. والآن هيا بنا لننطلق.. هل معك مسدسك يا واتسون؟

– هناك مسدس الخدمة القديم، لكنه بدرج مكتبي.

– الأفضل أن تأخذه معك، يجب أن نستعد لأي احتمالات.. لقد وصلت عربة الأجرة التي طلبتها لتأتي في السادسة والنصف حسبما أرى..

****

كانت الساعة قد تخطت السابعة بقليل حينما وصلنا لمرفأ «ويستمينيستر»، حيث وجدنا الزورق بالانتظار.. أخذ هولمز يتفحصه بدقة قبل أن يسأل:

– هل هناك أي علامة عليه تدل على أنه زورق تابع للشرطة؟

– نعم، المصباح الأخضر بالجانب.

– فلتزيله إذن.

نفذ «أثيلني» المطلوب، قبل أن نصعد على متن الزورق، لفك الحبال بعد ذلك.. جلس ثلاثتنا –«أثيلني»، وهولمز، وأنا– بمؤخرة الزورق، بينما تولى رجلٌ مسؤولية الدفة، وقام رجلٌ آخر بتشغيل المحركات، في حين جلس مفتشا شرطة ضخام الأجسام في المقدمة. سأل «جونز»:

– وإلى أين نحن ذاهبون؟

– للبرج.. اطلب منهم أن يوقفوا الزورق أمام ترسانة «جاكوبسون» للسفن..

كان الزورق شديد السرعة، فمررنا بجوار صفوف طويلة من الصنادل النهرية المحملة بالبضائع بلمح البصر كما لو كانت متوقفة مكانها.. وسرعان ما ارتسمت ابتسامة رضا على شفتي هولمز حينما سبَقنَا باخرة نهرية كانت متقدمة عنا.. قال:

– المفترض أن نستطيع اللحاق بأي مركبة موجودة في النهر.. أصحيح؟

– ليس بالضبط، لكن يمكنك أن تقول بثقة أنه ليس بوسع الكثير من الزوارق أن تسبقنا.

– يجب أن نتمكن من اللحاق بزورق «أورورا» المعروف بسرعته.. سأفهمك وضعنا الحالي يا واتسون.. أتتذكر كم كنت منزعجًا من كون عقبة مثل هذه تعترض طريقي؟

– أكيد.

– حسنًا، لقد قمت بمنح نفسي راحة تامة بأن اندمجت في بعض التحاليل الكيميائية.. قال أحد رجال السياسة ببلدنا قبلًا أن المرء لو غيَّر طبيعة عمله فإنه يظفر بأفضل راحة ممكنة، والواقع أنه كان محقًّا، فعندما تمكنت من إذابة الهيدروكربون الذي عملت عليه، ثم عدت للتفكير بقضية «شولتو»، تمكنت من النظر لها من زاوية مختلفة بالكامل.. لقد بحث الأولاد الذين أرسلتهم في كل جزء من النهر بلا نتيجة.. أي أن الزورق لم يكن راسيًّا بأي مرفأ أو رصيف، إضافةً إلى أننا نعرف أنه لم يعد لمرفئه الأصلي.. ومع ذلك فليس من الممكن أن يكون الهاربون قد قاموا بإغراقه ليخفوا آثارهم، بالرغم من أن هذه الاحتمالية كانت ستثبت صحتها لو انتفت جميع الاحتماليات الأخرى.. كنت موقنًا من أن صديقنا «سمول» يتمتع بحس إجرامي شديد، لكنني لم أتخيل أن يستطيع فعل شيء بهذا المكر؛ والذي عادة ما يكون نتيجة لمستوى تعليمي يفوق ذلك الذي حظي به..

فكرت في أنه لو كان صديقنا هذا موجودًا بلندن منذ مُدة، بما أننا نملك من الأدلة ما يؤكد لنا قيامه بمراقبة منزل «بونديشتيري» باستمرار، فسيكون من الصعب عليه أن يرحل على الفور؛ وكان سيحتاج لبعض الوقت، حتى ولو يوم واحد فقط، ليتمكن خلاله من ترتيب أموره.. هذا هو أكثر الاحتمالات واقعية على الأقل..

قلت:

– لكن هذا يبدو لي احتمالًا ضعيفًا، فالأغلب أنه قد قام بترتيب أموره بالفعل من قبل أن يبدأ بتنفيذ مهمته حتى.

– لا أوافقك الرأي، لأن مخبأه هذا سيكون قيمًا في حال اضطر للتوقف قليلًا ليتأكد من أنه يمكنه الاستغناء عنه، ومع ذلك فقد خطرت بعقلي فكرة أخرى، وهي أن رجلنا ذا الساق الخشبية شعر بأن مظهر شريكه الغريب والمميز –مهما حاول إخفاءه- سيجذب الانتباه، وربما يربط الناس بينه وبين مأساة «نوروود» الشمالية.. كان لديه ما يكفي من الذكاء لإدراك تلك النقطة جيدًا.. ذهبا لمخبئهما مستغلين ظلام الليل الدامس، وكان يرغب بالعودة قبل حلول النهار.. لكن حسب ما أدلت به مدام «سميث»، فقد كانت الساعة قد تخطت الثالثة صباحًا حينما انطلقوا بالزورق، ولم يكن أمامهم سوى

ساعة واحدة تقريبًا قبل أن يظهر النهار ويصبح الناس بكل مكان من حولهم؛ لهذا فكرت أنهما لن يتمكنا من الابتعاد كثيرًا.. قاما بشراء صمت وولاء السيد «سميث» بمبلغ جيد، واحتفظا بزورقه للهروب النهائي، وسارعا بالعودة لمسكنهما بصحبة صندوق الكنز إياه.. بعد مضي بضعة أيام، وبعدما سنحت لهما الفرصة للاطلاع على الجرائد ومعرفة الآراء السائدة عن الموضوع، تأكدا أنهما بعيدان عن الشبهات، فانطلقا مستغلين ستار الظلام نحو سفينة في «جرايفسيند» أو «داونز»، ولا بد أنهما كانا قد رتبا للسفر على متن تلك السفينة لأمريكا أو لأي من المستعمرات.

– وماذا بشأن الزورق؟ ليس بوسعهما اصطحابه معهما لمخبئهما!

– صحيح، لهذا فكرت أن الزورق لا يمكن أن يكون بعيدًا، مع أنه ليس في مكان ظاهر كذلك.. وهنا وضعت نفسي مكان «سمول» هذا وحاولت النظر للموضوع من وجهة نظر رجل بنفس قدراته.. في الأغلب سيفكر في أن إرجاع الزورق أو الاحتفاظ به في مرفأ سيجذب انتباه الشرطة بسهولة لمطاردته.. كيف يمكنه إذن إخفاء الزورق لكن مع الاحتفاظ به تحت تصرفه في حالة الحاجة له؟ ماذا كنت سأفعل لو كنت مكانه؟ لم أستطع التوصل إلا لحل واحد، وهو أن أُوقِف الزورق عند مصنع أو مُصلح مراكب، طالبًا منه إجراء بعض التغييرات عليه.. وحينها سيأخذه للورشة فيختفي عن الأنظار بالكامل، وبنفس الوقت يمكنه الحصول عليه بسهولة عند الحاجة..

– الأمر يبدو بديهيًا للغاية عندما تشرحه..

– مثل هذه الأشياء البديهية هي الأكثر قابلية لأن يتم إغفالها.. لكنني صممت على التصرف بناءً على هذه الفكرة، فارتديت زي ذلك البحار العجوز وذهبت على الفور لأسأل في جميع ترسانات السفن الموجودة على ضفاف النهر، لكنني في البداية فشلت في العثور على هدفي في أول خمس عشرة ترسانة منها، لكن حظي تغير عند الترسانة رقم ستة عشر، وكان اسمها ترسانة «جاكوبسون»، فعرفت أنهم استلموا الزورق المدعو «أورورا» من رجل ذي ساق خشبية، وقد طلب منهم إجراء بعض التغييرات البسيطة على دفته، وأخبرني رئيس العمال هناك أنه لم يكن هناك أي خطب بدفة الزورق من الأصل، وأشار إليَّ نحو الزورق، وبنفس اللحظة دخل «مورديكاي سميث» مالك الزورق المفقود! كان مخمورًا، ولم أكن لأعرفه أصلًا لولا أنه صاح باسمه واسم زورقه بصوت أجش وهو يقول إنه يريده الليلة في الساعة الثامنة بالضبط، لأن مرافقيه لا يطيقون الانتظار! يبدو أنهما دفعا له مبلغًا ضخمًا، لأنه بدا ممتلئًا بالمال حتى التخمة، وأخذ يرمي نقوده ذات اليمين وذات الشمال على عمال الترسانة.. تتبعته للحظات، فرأيته يدخل حانة، لذلك اتخذت طريقي عائدًا للترسانة حيث رأيت بالصدفة أحد صبياني، فكلفته بمراقبة الزورق، وطلبت منه الوقوف عند حافة النهر والإشارة إلينا بمنديله عندما يخرجون بالزورق.. سنختبئ في النهر للانتظار.. سيكون شيئًا غريبًا لو لم تنجح تلك الخطة في الإمساك بالرجال وبالكنز.

قال جونز:

– لقد قمت بالتخطيط الرائع، سواء أكانا هما الرجلان المقصودان أم لا، لكن لو كان الموضوع بيدي لأرسلت قوة الشرطة لترسانة «جاكوبسون» هذا وقمت بالقبض عليهما بمجرد ذهابهما هناك.

– لو فعلت هذا فلن يذهبا أبدًا.. «سمول» هذا ثعلب ماكر، وبالتأكيد سيرسل من يقوم بالاستطلاع أولًا قبل ذهابه ليتأكد من أنه لا يوجد من يبدو مريبًا بالمكان، ولو وُجِد، فسيظل بنفس المخبأ لأسبوع آخر مثلًا..

– كان بوسعك مراقبة «مورديكاي سميث» مالك الزورق حتى يدلك على مكانهما!

كان هذا التعليق مني أنا، فرد هولمز:

– لو فعلت ذلك لضيعت يومي دون فائدة، لأن احتمال معرفة «مورديكاي» بمكان اختفائهما ضعيف.. ما دام لديه خمر ويتلقى أجرًا جيدًا منهما، فلِمَ سيخاطر بطرح الأسئلة؟ لا بد أنهما يرسلان له تعليماتهما في رسائل.. لقد فكرت بكل الخطط الممكنة يا عزيزي، وكانت هذه هي أفضلها.

وخلال هذا الحديث مررنا بسرعة كبيرة أسفل مجموعة من الجسور الطويلة المبنية فوق نهر التايمز، بينما شقت آخر أشعة للشمس طريقها لتذوب وتختفي وراء الصليب الموجود فوق كاتدرائية القديس بولس إذ كنا نمر بمدينة لندن، وكان الغسق قد حلَّ عندما وصلنا للبرج في النهاية.. أشار هولمز لمجموعة كبيرة من الحبال والصواري على جانب «سُوراي» من النهر وهو يقول:

– ها هي ترسانة جاكوبسون، فلنبحر بهدوء جيئة وذهابًا متخفين وراء هذا الصف من مراكب الشحن والنقل.

وأتبع جملته بأن أخرج نظارة ليلية من جيبه، أخذ يجول بها على الشاطئ لبعض الوقت قبل أن يكمل:

– الفتى الذي تركته يراقب الزورق في مكانه، لكنه لا يلوح بالمنديل كما اتفقنا.

هتف جونز بحماس:

– هل نقوم بالإبحار في نفس اتجاه التيار لمسافة قصيرة، ثم نتوقف لننتظرهم؟

كنا كلنا متحمسين وقتها، ورجلا الشرطة، والرجلان الآخران بديا متحمسين مثلنا مع أنهما لا يعرفان أي شيء يخص القضية. أجابه هولمز:

– لا يجب أن نتعامل مع أي شيء على أنه مسلَّم به، فالمرجح أنهم سيقومون بالإبحار في اتجاه التيار فعلًا، لكنني لستُ متأكدًا تمامًا من هذه النقطة، ومن موقعنا هنا بوسعنا رؤية مدخل الترسانة، بينما سيصعب عليهم رؤيتنا.. السماء ستكون صافية الليلة، وسيكون الضوء كافٍ، فالأفضل أن نظل في موقعنا هذا.. هل لاحظتم كيف احتشد أولئك الرجال في ضوء مصابيح الغاز؟

– يغادرون عملهم بترسانة السفن؟

– نعم.. صحيح أنهم يبدون متشردين ذوي ثياب رثة، إلا أنني متأكد من أن كل واحد منهم يحمل بداخله تلك الشرارة التي بداخل كل واحد فينا.. ربما لا يبدو هذا ظاهرًا من مظهرهم الخارجي هذا، لأن الإنسان لغز عجيب!

أجبته:

– البعض يصفون ما تقوله بأنه روح تسكن جسدًا حيوانيًّا.

علق هولمز على قولي:

– الحقيقة أن الإحصائي «وينوود» قد تناول هذا الموضوع ببراعة شديدة، فيذكر أن كل رجل يُمثل لغزًا معقدًا بمفرده، لكن عندما ينتمي لجماعة ما فإنه يتحول ليصبح حقيقة رياضية أكيدة.. فمثلًا ليس بوسعك التنبؤ بتصرف رجل معين حين يكون وحده، لكن بوسعك توقع سلوك عدد معين من الأشخاص بدقة عالية؛ فالأشخاص ربما يختلفون فيما بينهم، لكن النسب تظل ثابتة بلا تغيير.. هل هذا منديل؟ يُخيل لي أنني أرى شيئًا أبيض اللون يرفرف هناك، أهذا صحيح؟

صحتُ:

– حقًّا! أنا أرى الصبي التابع لك بوضوح!

وهنا هتف هولمز:

– وها هو زورق أورورا، ينطلق بأقصى سرعة لديه.. انطلق خلف ذلك الزورق ذو الضوء الأصفر بكل سرعتك أيها المهندس.. يا للهول! لن أغفر لنفسي أبدًا لو لم نتمكن من اللحاق به بعد كل هذا.

المشكلة أن الزورق تسلل دون أن يراه أحد من خلال باب الترسانة، فعبر من وراء مركبين أو ثلاثة صغار الحجم؛ وكانت النتيجة أنه وصل لأقصى سرعة لديه قبل أن نلمحه، وها هو الآن ينطلق بسرعة كبيرة مع اتجاه التيار بالقرب من شاطئ النهر.. غمغم جونز بحسرة وهو ينظر نحوه:

– لا أظننا سنتمكن من الإمساك بهم، فالزورق منطلق بسرعة كبيرة!

صرَّ هولمز على أسنانه وصاح:

– يجب أن نلحق بالملاعين! أضيفوا المزيد من الفحم للمحرك أيها الرجال! أريدكم أن تجعلوا زورقنا ينطلق بأقصى سرعة ممكنة، حتى لو كان معنى هذا احتراقه!

اقتربنا من زورق «أورورا»، وارتفع زئير المحركات كأنها قلب مصنوع من المعدن، بينما شقت مقدمة الزورق الحادة المائلة سطح النهر الداكن لتصنع موجتين ضخمتين عن يميننا وعن يسارنا، ومع كل صوت يصدر عن المحركات كان زورقنا يهتز فيقفز بنا كأنه كائن حيٌّ مثلنا! بمقدمة السفينة كان هناك كشاف أصفر ضخم، وقد أخذ يطلق شعاعًا من الضوء الذي تلألأ أمامنا.. ظهرت أمامنا على مسافة قريبة رُقعة داكنة تشق المياه، عرفنا أنها زورق «أورورا»، بينما ظلت دوامات الزبد الأبيض التي تركها من ورائه دليلًا على سرعته الشديدة.. مررنا مندفعين كالبرق ببعض الصنادل والبواخر ومركبة تجارية، فمررنا من بينهم، أو من خلفهم، أو من حولهم.. تناهت لأسماعنا أصوات هتاف من بين الظلام المنتشر من حولنا، لكن ظل زورق «أورورا» منطلقًا بنفس سرعته، ونحن مثله!

نظر هولمز إلى أسفل داخل حجرة المحرك، فالتمع الوهج الشديد الصادر منها على صفحة وجهه المتحمس الذي بدا في تلك اللحظة كوجه نسر، وسمعته يصرخ بمن بالداخل:

– زيدوا كمية الفحم يا رجال! نحن بحاجة لكل قدر ممكن من البخار!

هتف «جونز» وهو ينظر للأمام نحو زورق «أورورا»:

– أظننا قد بدأنا نقترب منهم!

علقت:

- أكيد، وأظننا سنلحق بهم خلال دقائق معدودة!

لكن لسوء حظنا ظهر بتلك اللحظة زورق يجر من ورائه ثلاثة صنادل، فقطع الطريق بيننا وبين «أورورا»!

اضطررنا لإدارة دفة زورقنا بحدة، لنتفادى الاصطدام بهم، وعندما مروا وحاولنا العودة، لنستكمل طريقنا كان الزورق المنشود قد ابتعد لمسافة مائتي ياردة على الأقل.. كان لا يزال بمجال رؤيتنا، وقد تحولت السماء وقتها من ضوء الغسق المعتم الذي يمنع الرؤية بوضوح ليفترشها ظلام الليل الصافي الذي تلألأت فيه كوكبة من النجوم، فأنارت المكان..

كانت محركات زورقنا تعمل بأقصى سرعة لديها، وقد أخذت مؤخرته التي جلسنا عليها تهتز مع كل تلك الطاقة التي اندفع بها.. مررنا بمنطقة من نهر «التايمز» تُدعى «ذا بول»، ثم عبرنا بجوار مواني «الهند الغربية»، قبل أن نمر بمنطقة «ديتفورد ريتش»، وهي منطقة طويلة من النهر، وبعدما درنا حول رأس جزيرة «الكلاب»، اتجهنا لأعلى النهر من جديد.. صرنا نرى «أورورا» الأنيق بوضوح بعدما كان مجرد كتلة مبهمة من قبل، ووجَّه «جونز» ضوء كشافِ زورقنا لنتمكن من رؤية من يجلسون على متنه بوضوح..

رأيت رجلًا عند مؤخرة الزورق وقد جلس منحنيًا فوق كتلة سوداء بين ركبتيه، ولمحت بجواره كتلة داكنة أخرى بدت كأحد كلاب سلالة «نيوفاوند لاند».. وبينما أمسك الصبي بدفة الزورق، وقف والده «سميث» عاري الصدر يملأ الفرن بالفحم بكل قوته، فالتمعت عضلات جسمه بوهج أحمر ناري.. ربما كانت لديهم بعض الشكوك في البداية في كوننا نطاردهم، لكن لا بد أنهم انتبهوا الآن لكوننا نتبع كل حركاتهم تتبعًا لا يحتمل الشك..

حينما وصلنا عند «جرينويتش» لم يعد يفصلنا عنهم إلا حوالي ثلاثمئة ياردة، أما عند «بلاكوول» فقد صارت المسافة التي تفصل بيننا حوالي مائتي وخمسين ياردة فقط..

قد قمت بمطاردة الكثير من الكائنات في العديد من البلاد التي زرتها خلال حياتي المهنية الحافلة بالمغامرات، لكن الإثارة التي جلبتها تلك المطاردة للمجرمين عبر نهر «التايمز» قد فاقت أي إثارة شعرت بها في الماضي..

أخذنا نقترب منهم رويدًا، ياردة بعد الأخرى، ووسط السكون الذي خيم على كل شيء من حولنا، كان لا يزال بوسعنا سماع صوت ضجيج محركاتهم.. كان الرجل الموجود بمؤخرة الزورق لا يزال جاثيًا فوق الأرضية، وقد أخذ يحرك ذراعيه من حين لآخر، كما لو كان يفعل شيئًا ما، ومن لحظة لأخرى كان يرفع رأسه كأنما يقيس بعينيه المسافة التي تفصلنا عنهم، والتي كانت تتناقص باطِّراد!

صرخ فيهم «جونز» يأمرهم بالتوقف، فقد صرنا خلفهم بمسافة قصيرة لا تتعدى الأربعة قوارب، وقد انطلق كلا الزورقين بأعلى سرعة لديهما.. كنا قد وصلنا لجزء مكشوف من النهر، وقد صار سهل «باركينج» على جانبنا، بينما امتدت مستنقعات «بلامستيد» كئيبة المنظر على الجانب الآخر.. مع ارتفاع

صيحة «جونز»، هبَّ الرجل الجاثي على الأرضية بمؤخرة الزورق واقفًا، وأخذ يلوح قبضته نحونا وهو يطلق دفقة من السباب بصوت عالٍ مبحوح!

كان رجلًا قويًّا ضخم الجسد، وعندما باعد بين ساقيه ليوازن جسمه، لمحت تحت فخده الأيمن طرف خشبي.. عندما ارتفعت صيحته الحادة المليئة بالغضب تحركت كتلة كانت متكومة على أرضية الزورق، فاعتدلت ليتضح أن تلك الكتلة الداكنة لم تكن إلا رجلًا أسودَ اللون ضئيل الجسد –أصغر حجم رأيته بحياتي على الأقل– ذا رأس ضخم مشوه تعتليه مجموعة من الشعر المتشابك الأشعث، وأخذ ينظر نحونا بشراسة شديدة!

لحسن الحظ أن هولمز كان قد استل مسدسه حقًّا، فأخرجت مسدسي سريعًا بمجرد أن لمحت ذلك الكائن بشع الخلقة.. كان ملتحفًا بشيء بدا لي كبطانية أو معطف واسع، فلم يظهر منه إلا وجهه، والذي كان كافيًا ليبث الخوف فيمن يراه.. لم أر ملامح وجه يحمل مثل تلك القسوة والشراسة من قبل، وقد التمعت عيناه السوداوان ببريق شيطاني، بينما انحسرت شفتاه الغليظتان عن صفين من الأسنان أخذ يصر عليها وهو يتأملنا بشراسة حيوانية.

قال هولمز بكل هدوء:

- بمجرد أن يرفع يديه قم بإطلاق النار!

كنا في تلك اللحظة قد صرنا على مسافة قارب واحد فقط منهما، نكاد أن نلامس طريدتنا.

صار بوسعي رؤية الرجلين بعدما انتصبا واقفين، وقد باعد الرجل الأبيض بين ساقيه مطلقًا تيارًا مستمرًا من السباب، بينما أخذ تابعه القصير القبيح ينظر نحونا، وقد التمعت أسنانه الصفراء في ضوء مصابيحنا....

من الجيد أننا صرنا قادرين على رؤيته بذلك الوضوح، فبينما نحن ننظر نحوه وجدناه يخرج من أسفل غطاء جسده أسطوانة خشبية قصيرة مثل المسطرة المدرسية، وسرعان ما كان يضعها بين شفتيه!

دوى صوت مسدسينا في نفس اللحظة، وفي اللحظة التالية وجدت الرجل القبيح يدور حول نفسه، رافعًا ذراعيه، قبل أن يسقط وسط المياه وهو يحشرج مختنقًا، بينما التمعت عيناه بنفس الحقد المكتوم بين دوامات مياه النهر البيضاء.. في نفس اللحظة ألقى ذو الساق الخشبية نفسه فوق الدفة ليديرها بقوة، ليجعل الزورق يتجه نحو الضفة الجنوبية، بينما استمررنا نحن في إطلاق النار على مؤخرة الزورق، لكننا أخطأناه بعدة أقدام، وخلال ثوانٍ قليلة كنا نبحر في نفس الاتجاه، لكن خصومنا كانوا على وشك الوصول للضفة حقًّا.

كان مكانًا مقفرًا معزولًا، وقد أرخى القمر ضياءه فوق مساحة شاسعة من أراضي المستنقعات، التي انتشرت بها العديد من بِرَك المياه الراكدة، وبعض المساحات من النباتات المتعفنة.

صعد الزورق على الضفة الطينية بصوت مكتوم خافت، وارتفعت مقدمته في الهواء، بينما غمرت مؤخرته المياه.

قفز المجرم الهارب من الزورق، لكن طرف ساقه الخشبية لم يلبث أن غاص وسط التربة المشبعة بالماء، فقام سريعًا وهو يتلوى من الألم، لكن بلا فائدة، فلم يكن بوسعه التحرك ولو خطوة واحدة سواء للأمام أو للخلف، فأخذ يصرخ وهو في أشد حالات الغضب والهياج، ويركل الطمي من حوله، لكن كل محاولاته اليائسة انتهت بطرفه الخشبي غائصًا أكثر وسط الضفة اللزجة!

وعندما رسونا بقاربنا بجواره كان قد صار عاجزًا عن الحركة بالكامل، لدرجة أننا اضطررنا إلى لف حبل سميك حول كتفيه، لكي نتمكن من إخراجه من الطمي، وجره نحونا كأنه سمكة مفترسة نصطادها.. جلس كل من «سميث» الأب والابن داخل الزورق متجهمي الوجه، وعندما أمرناهما بالصعود على متن زورقنا نفّذا في طاعة..

سحبنا زورق «أورورا» من خلفنا وقد ربطناه بمؤخرة زورقنا، وعلى سطحه وجدنا صندوقًا حديديًّا هندي المنشأ، وهو الصندوق الذي ولا بد يحتوي على كنز آل «شولتو» الملعون!

لم يكن لذلك الصندوق مفتاحٌ، لكنه كان ثقيل الوزن للغاية، فقمنا بنقله في حرص وتأنٍ إلى زورقنا، حيث أودعناه المقصورة.

أبحرنا ببطء عائدين بعكس اتجاه التيار، وقد وجهنا ضوء كشافاتنا بجميع الاتجاهات، لكن دون العثور على أي أثر لرجل الجزيرة الشرس، ففي مكان ما وسط مياه نهر «التايمز» المظلمة المليئة بالطين، رقدت عظام ذلك الزائر الغريب..

قال هولمز وهو يشير نحو الكوة الخشبية الموجودة بسطح زورقنا:

– انظر هناك!

بالكاد كنا قد أطلقنا مسدسينا بالسرعة الكافية، ولمحنا خلف المكان الذي كنا نقف فيه بالضبط واحدًا من تلك السهام القاتلة التي نعرفها جيدًا!

لا بد أن ذلك السهم اللعين قد مر بيننا في نفس اللحظة التي أطلقنا فيها النيران.. أخذ هولمز ينظر إليه مبتسمًا، قبل أن يهز كتفيه بلا مبالاة، أما أنا –أعترف– أصابني الغثيان لمجرد تخيل تلك الميتة الرهيبة والتي نجونا منها بمعجزة!

****

الفصل الحادي عشر

كنز بلدة "آجرا" العظيم

جلس أسيرنا بنفس المقصورة، أمام صندوق الكنز الذي فعل من أجله الكثير وانتظر لفترة طويلة للحصول عليه.. بدا رجلًا غريبًا، بينما ارتسمت نظرة لا مبالاة في عينيه، غطت التجاعيد الكثيفة وجهه البني المائل للحمرة، التي تشي بالحياة الصعبة التي اختبرها ذلك الرجل وسط العراء تحت الشمس. منحته لحيته هيبة غريبة، دلت على أنه ليس بالرجل الذي يسهل ثنيه عن هدفه..

أعتقد أنه في الخمسين من عمره مثلًا، فشعره كان أسود مجعدًا غزاه الشيب.. لم يكن قبيح الملامح في سكونه، بالرغم من حاجبيه الكثيفين وذقنه العريضة التي أعطت ملامح وجهه هيئة مرعبة حينما يرتسم عليها الغضب، كما لمحت مؤخرًا..

جلس واضعًا يديه المكبلتين على حجره، وقد مال رأسه على صدره، وأخذ يوجه نظراته الثاقبة نحو الصندوق الحديدي الذي كان السبب في كل ما حدث.. بدا لي أن ما ارتسم على صفحة وجهه القاسي هو الأسى وليس الغضب.. رفع عينيه نحوي، وقد ارتسمت فيهما لمعة من يستغرب كل ما حوله. أتراه مستغرب أننا تمكنا من القبض عليه؟

أشعل «هولمز» سيجاره وقال:

– يؤسفني أن الأمور انتهت بتلك الطريقة يا «جوناثان سمول».

أجابه الرجل بلهجة صادقة:

– وأنا مثلك يا سيدي، لا أظن أن بإمكاني التهرب من فعلتي، ولكنني أقسم لك أنني لم أمس السيد «شولتو» بسوء! العفريت المدعو «تونجا» هو من أطلق عليه تلك السهام الملعونة، أما أنا فلم يكن لي يد في الموضوع على الإطلاق.. لقد غلبني الحزن عليه كما لو كان من أقاربي، حتى إنني قمت بجلد ذلك الشيطان الصغير بطرف الحبل غير المربوط، لكن كان الأوان قد فات، ولم يكن هناك ما يمكن فعله..

ناوله هولمز سيجارًا وهو يقول:

– حسنًا، خذ سيجارًا، وربما من الأفضل لو تحتسي بعض النبيذ من زجاجتي؛ فأنت مُبتلٌّ للغاية. كيف توقعت أن يتمكن رجل ضئيل الحجم وضعيف مثل ذلك الأسود من التغلب على السيد «شولتو» ويقيده، بينما أنت تقوم بتسلق الحبل؟

– يبدو لي أنك تعرف الكثير مما حدث ليلتها كما لو كنت معنا وقتها يا سيدي.. كنت آمل في الواقع ألا أجد أحدًا يومها في الغرفة، فقد حفظت عادات سكان ذلك المنزل جيدًا، وفي ذلك الوقت، كنت أعرف أن السيد «شولتو» يقوم بالنزول للطابق السفلي في الأغلب لتناول العشاء.. لن أخفي عليكم شيئًا بخصوص ما حدث؛ فأفضل شيء أدافع به عن نفسي هو الاعتراف بالحقيقة كاملة.. حسنًا! لو كنت قد وجدت ذلك

الرائد العجوز، لما ترددت ولو للحظة في قطع عنقه، أو طعنه، بالضبط كما لا أتردد الآن في تدخين هذا السيجار. لكن حظي اللعين هو الذي أوقعني في ابنه، الذي لا أحمل له أي ضغينة!

– لقد صرت الآن في عهدة السيد «أثيلني جونز» من شرطة السكوتلانديارد.. ولسوف يجلبك لمنزلي، لإخباري بحقيقة ما حدث ليلتها.. يجب أن تزيح الأمر عن كاهلك، فربما أتمكن من مساعدتك لو فعلت، وقد أتمكن من إثبات أن السم سريع المفعول، لدرجة قتل الرجل قبل أن تصل أنت لغرفته من الأصل.

– وهذا ما حدث حقًّا! لم أَخف من حياتي كلها شيئًا قدر خوفي عند رؤيته مكشرًا عن أسنانه في وجهي، وقد مال رأسه على كتفه، بينما أنا أتسلل عبر النافذة.. شعرت بالخوف الشديد وقتها، لدرجة أنني كدت أن أقتل «تونجا» جراء فعلته، إلا أن الملعون فرَّ هاربًا؛ ولهذا نسيَ عصاه ذات الرأس الحجرية وبعض سهامه المسمومة وراءه، وهي الأشياء التي ساعدتكم فيما أظن على تعقبنا، مع أنني لا أستطيع تصور كيف لم تفقدوا آثارنا...؟ على كل حال، فأنا لا أكنُّ لكم ضغينة على هذا..

صمت الرجل للحظة، قبل أن يبتسم بمرارة مكملًا:

– لكنني أستغرب كيف سارت الأمور بتلك الطريقة، فلا يكفي أن قضيت –وأنا صاحب الحق الأصلي في كنز تبلغ قيمته نصف مليون جنيهٍ – نصف سنين عمري في فترة عقوبة؛ أبني فيها حاجزًا للأمواج بجزر «آندمان»، وغالبًا سأقضي النصف الآخر بعقوبة حفر مصارف للمياه بـ «دارتمور». لقد كان يومًا ملعونًا ذلك الذي رأيت فيه ذلك التاجر المدعو «أشميت» وارتبطت بكنز «آجرا» الملعون الذي لم يجلب لمالكه الأصلي غير المصائب؛ فقد تسبب في مقتل التاجر، وجعل ذلك الرائد «شولتو» يقضي حياته معزولًا مرعوبًا شاعرًا بالذنب، وأما أنا فجلب عليَّ العبودية للأبد!

أقحم «أثيلني جونز» وجهه الضخم، وكتفيه العريضتين في تلك اللحظة داخل المقصورة الضيقة وعلق بقوله:

– يا له من اجتماع عائلي مؤثر.. ناولني زجاجتك يا هولمز، لآخذ منها بعض النبيذ.. أعتقد أن بإمكاننا الآن تبادل التهاني.. يا لها من خسارة كبيرة أننا لم نتمكن من القبض على الآخر حيًّا، لكن لم يكن هناك خيار بديل.. أعتقد أن عليك الاعتراف يا هولمز أن هروب زورق «أورورا» كان وشيكًا.. لقد بذلنا أقصى ما بوسعنا لكي نلحقه..

أجاب هولمز:

– المهم هي النهاية، لكنني أعترف أنني لم أتوقع أن تكون بتلك السرعة..

– يقول «سميث» إنه واحد من أسرع الزوارق الموجودة على النهر، ويقول إنه لو كان هناك رجل آخر يساعده في تشغيل المحركات لما تمكنا من اللحاق بهم أبدًا، لكنه أقسم أنه ليست لديه أي معلومات عن قضية «نوروود» على الإطلاق..

هتف سجيننا:

– هذا صحيح، فلم نخبره بأي شيء عنها.. لقد قمت بانتقاء زورقه بالذات؛ لأنني سمعت أنه شديد السرعة، لكننا لم نُطلعه على شيء، وإنما اكتفينا بدفع مقابل جيد له، ووعدناه بإعطائه مكافأة كبيرة إذا وصلنا لسفينتنا المنشودة «آزميرالدا» في «جرايفساند»، والمتجهة البرازيل.

– لو لم يكن قد ارتكب أي خطأ، فسنضمن ألا يحدث له مكروه، ربما نسرع في القبض على المتهمين، لكننا لا نتسرع في إدانتهم..

لكم كان شعورًا مسليًّا أن أرى «جونز» المعتدَّ بنفسه وقد بدأ في نسب الفضل في نجاح تلك العملية لنفسه بالفعل!

وقد استنتجت من الابتسامة الخفيفة التي شقت طريقها إلى شفتَي رفيقي هولمز أنه لاحظ نفس الشيء.

قال «جونز»:

– سوف نصل لجسر «فوكسهول» قريبًا، حيث سنُنزلك أنت وصندوق الكنز يا دكتور واتسون.. لا أحتاج لتذكيرك بأنني أتحمل مسؤولية كبيرة للسماح لك بهذا؛ فهو تصرف غير معتاد على الإطلاق.. لكنني لا أحنث بوعودي، وإن كنت مضطرًّا إلى إرسال مفتش معك، لأنها حمولة ثمينة للغاية.. ستستقل عربة أجرة، أليس ذلك صحيحًا؟

– أجل، سأستقل عربة أجرة.

– من المؤسف أنه لا يوجد مفتاح لذلك الصندوق، وإلا لقمنا بجرد محتوياته أولًا.. سيوجب عليك كسر قفله.. أين مفتاحه يا رجل؟

أجابه «سمول» باقتضاب:

– بقاع النهر!

– حسنًا، لم يكن هناك لزوم لجعل مهمتنا شاقة هكذا، فقد لاقينا ما فيه الكفاية من مشاق للوصول إليك، ومع ذلك، فلست بحاجة لتنبيهك أن تأخذ حذرك أيها الطبيب.. أحضر الصندوق معك لمنزلكما بشارع «بيكر»، وسنكون هناك قبل أن ننطلق في طريقنا لمركز الشرطة..

****

قاموا بإنزالي في «فوكسهول» بصحبة الصندوق المعدني الثقيل، يصاحبنا مفتش دمث الأخلاق بشوش الوجه.. بعد أن سارت العربة بنا نحو ربع ساعة وصلنا لبيت مدام «سيسيل فوريستر»، حيث فوجئت الخادمة بقدوم زوار في ذلك الوقت المتأخر..

شرحت لي بكلمات مقتضبة أن مدام «سيسيل فوريستر» قد خرجت ذلك المساء، وغالبًا ستتأخر في العودة جدًّا، بينما كانت الآنسة «موريستان» في غرفة الاستقبال قررت الذهاب هناك حاملًا ذلك الصندوق، بينما انتظرني المفتش اللطيف في عربة الأجرة.

وجدتها تجلس قرب النافذة، وقد ارتدت ثوبًا أبيض شفافًا، تألقت على ياقته وخصره طبقة خفيفة من اللون القرمزي.. جلست مسترخية على كرسي مصنوع من الخوص، بينما تسلل ضوء المصباح ليداعب وجهها العَذب الذي خيم عليه الحزن، فصبغ شعرها الغزير بلمعة معدنية خفيفة، في حين تدلت إحدى ذراعيها البيضاوين على أحد جانبي الكرسي، وقد دلَّت جلستها على مدى ما هي فيه من حزن شديد..

بمجرد أن سمعت صوت خطواتي هبَّت واقفة، وقد اكتسبت وجنتاها الشاحبتان احمرارًا شديدًا من المفاجأة.. قالت:

– لقد سمعت صوت اقتراب العربة، لكنني ظننت أن مدام «فوريستر» قد قررت العودة مبكرًا، لم أتصور أن يكون القادم أنت.. هل هناك خطب ما؟

وضعت الصندوق على المنضدة، وبالرغم مما تصاعد من حزن داخل قلبي، فقد قلت لها بكل سعادة:

– على العكس، لقد جئتك بما سيفرحك.. هذا هو الكنز!

لكنني لدهشتي وجدتها تنظر للصندوق بصمت، قبل أن تقول ببرود:

– أوه، إذن فهذا هو صندوق الكنز؟

– أجل، هذا هو كنز «آجرا» العظيم.. نصف ما فيه ملك لكِ، ونصفه الأخر سيذهب لـ «ثاديوس شولتو».. سيكون نصيب كل واحد منكما بضع مئات من الآلاف.. أتصدقين! سيكون عائد هذا المبلغ السنوي عشرة آلاف جنيه إسترليني.. ستصبحين من أغنى شابات إنجلترا، أليس هذا عظيمًا؟

ربما كنتُ قد بالغت قليلًا في تمثيل سعادتي، وربما تكون هي قد لاحظت بغريزتها الأنثوية ما في تهنأتي من نبرة جوفاء، فقد لمحتُ حاجبيها يرتفعان قليلًا، وهي تنظر نحوي متعجبة.. قالت:

– حسنًا، الفضل في حصولي عليه يعود لك بالأساس.

أجبتها:

– على الإطلاق، بل هو صديقي «شيرلوك هولمز» هو من توصل له، فمهما بلغتُ من ذكاء، فلم أكن لأتمكن من تتبع تلك الأدلة التي أربكت بعضها قدراته التحليلية الفذة! حتى إننا كدنا أن نفقد خيوط القضية حقًّا في آخر لحظة.

قالت:

– اجلس من فضلك يا دكتور واتسون، واحكِ لي كل شيء.

سردت على مسامعها باختصار ما حدث بعد آخر مرة رأيتها فيها، ومن ضمن ما حكيت ذلك الخيط الجديد الذي اتبعه هولمز، بحثًا عن زورق «أورورا»، ثم العثور عليه، ثم ظهور «أثيلني جونز»، ورحلتنا الليلية، وما حدث من مطاردة شرسة في نهر «التايمز»، وقد أخذت تستمع لسرد مغامرتنا فاغرة الفم، لامعة العينين. وعندما وصلت لنقطة السهام المسمومة التي كادت أن تصيبنا، شحب وجهها لدرجة أني خفت أن تفقد وعيها.. صببت لها بعض الماء فسمعتها تقول:

– لا داعي للقلق، أنا بخير الآن. لكنني صُدمت فقط لكوني تسببت في تعريض أصدقائي لمثل هذا الموقف الخطير!

– لقد انتهى كل شيء على خير، ولم نصب بسوء.. لن أحكي أي تفاصيل مؤلمة أخرى، فلنتحدث عن موضوع آخر أكثر بهجة، ها هو الكنز أمامك، فما الذي يمكن أن يكون مبهجًا أكثر من هذا؟ لقد استأذنت لأحضره معي، فقد فكرت أنك ولا بد ستحبين أن تكوني أول من يُلقي نظرة عليه.

– كنت راغبة في هذا كثيرًا..

لكن لم يكن هناك أي أثر للحماس بصوتها.. لا بد وأنها تفكر في أنه من غير اللائق أن تبدو غير مبالية بذلك الكنز الذي سعى الجميع جاهدين لاسترجاعه من سارقيه.. انحنت فوق الصندوق مكملة:

– يا له من صندوق جميل! هذه الزخارف اليدوية التي تعلوه هندية الصنع، أليس ذلك صحيحًا؟

– فعلًا، فهو قادم من ولاية «بيناريس» الهندية.

حاولت رفعه بيديها فلم تتمكن، فهتفت مندهشة:

– وهو ثقيل الوزن كذلك! ربما يكون الصندوق نفسه ذا قيمة كبيرة، لكن أين المفتاح؟

– لقد ألقاه «جوناثان سمول» بنهر «التايمز».. سنضطر لاستعارة قضيب المدفأة الخاصة بمدام «فوريستر» لمحاولة فتحه.

كانت هناك فتحة كبيرة على شكل الإله «بوذا» جالسًا بمقدمة الصندوق، ويبدو أنها هي فتحة المفتاح.. أدخلت طرف القضيب من تحته، ثم لويته للخارج بقوة كأنه عتلة، فصدرت طقطقة عالية من الصندوق قبل أن يستسلم وينفتح أمامنا..

بأصابع مرتعشة فتحت غطاءه، ثم أخذنا نحدق إليه مذهولين، فقد رأينا الصندوق الحديدي أمامنا فارغًا!

السبب في كونه ثقيلًا كان لسُمك الحديد الذي صُنع منه الصندوق يبلغ ثلثي بوصة من كل جانب من جوانبه.. كان صندوقًا واسعًا متقن الصنع، ومتينًا، كأنه صُنع ليحمل بداخله أشياء ثمينة، لكنه في تلك اللحظة لم يحمل بداخله ولو قطعة واحدة من المعدن أو المجوهرات، فقد كان خاليًا بالكامل.

قالت الآنسة «موريستان» بهدوء:

– يبدو أن الكنز قد اختفى.

عندما سمعت كلماتها وفهمت معناها شعرت وكأن حملًا ثقيلًا قد انزاح عن كاهلي.. لم أدرك كم أن كنز «آجرا» اللعين هذا يثقلني إلا حين اختفى أخيرًا!

أعرف أنه شعور أناني ينم عن عدم الولاء، لكنني لم أفكر لحظتها إلا في أن هذا الحاجز الضخم قد انزاح من بيننا، فهتفت بسعادة غامرة:

– حمدًا لله!

وجدتها تنظر إليَّ بابتسامة خاطفة قبل أن تسألني:

– لم قلت هذا؟

أمسكت بيدها فلم تسحبها، قلت:

– لأنه صار بإمكاني أن أصبح معك مرة أخرى، فأنا أحبك بشدة يا «ماري».. أحبك كأصدق ما أحب رجل امرأة، لأن ذلك الكنز ألجمني، والآن بعد أن ضاع صار بإمكاني أن أخبرك كم أحبك! ولهذا حمدت الله.

هَمَست وأنا أضمها نحوي:

– إذن فأنا أحمد الله كذلك!

أيًّا كان من فَقَد كنزه، فقد أيقنت في تلك اللحظة أنني قد وجدت كنزي.

****

الفصل الثاني عشر

حكاية "جوناثان سمول" الغريبة

يجب أن أعترف أنه كان مفتشًا صبورًا ذلك الذي كان معي، فقد استغرقت وقتًا طويلًا قبل أن أعود إليه، وبطبيعة الحال فإن وجهه أظلم عندما أريته الصندوق الفارغ.. قال بكآبة:

– ها قد ضاعت المكافأة! فإن لم توجد أموال فلن أحصل على أجري.. كنت سأحصل على عشرة جنيهات، وزميلي «سام براون» هو الآخر كان سيحصل على مبلغ مماثل لو كان الكنز داخل الصندوق.

أجبته:

– لكن السيد «ثاديوس شولتو» رجل وافر الثراء، وأنا واثق من أنه سيقوم بمكافأتك على مجهودك سواء أكان هناك كنز أم لا.

لكن المفتش هز رأسه بخيبة أمل كبيرة مكررًا:

– لكن السيد «أثيلني جونز» سيعتقد أنني لم أقم بعملي كما يجب.

*****

يا للأسف، لقد صدقت توقعاته، فعندما وصلنا لشارع «بيكر» وقدمنا له الصندوق الفارغ، بدا وجهه جامدًا خاليًا من التعبير..

كانوا قد وصلوا للتو هو وهولمز والسجين، لأنهم غيروا رأيهم وقرروا المرور بمركز الشرطة أولًا لإبلاغهم بالتطورات قبل القدوم إلى هنا..

جلس رفيقي مسترخيًا في مقعده الوثير ذي الذراعين، وقد ارتسم على وجهه ذلك الفتور المعتاد، بينما جلس «سمول» أمامه بتبلد، وقد وضع ساقه الخشبية فوق ساقه الأخرى السليمة..

عندما قدمت الصندوق الفارغ لهم وجدته يسترخي في مقعده هو الآخر قبل أن يطلق ضحكة عالية، فهتف «أثيلني جونز» بغضب:

– أنت من فعل هذا يا «سمول»!

صاح مغتبطًا:

– نعم، أنا! لقد أخفيته حيث لن تصلوا إليه أبدًا، فهو كنزي أنا، ولو لم يكن بوسعي الحصول عليه، فسأحرص على ألا يحصل عليه غيري! ليس لأحدكم الحق في ذلك الكنز، فهو من حقي أنا وثلاثة رجال آخرين محبوسين في سجن جزر «آندمان» اللعينة.. أعلم أنه ليس بوسعي الحصول عليه، وكذلك هم، فقد كنت أتصرف طيلة الوقت لصالحهم، بالضبط كما كنت أتصرف لصالحي؛ لطالما لازمتنا «علامة الأربعة»، وأعرف جيدًا أنهم كانوا سيرغبون في أن أفعل ما فعلته بالضبط، وألقي الكنز بنهر «التايمز»! هذا سيكون أفضل لنا من أن يحصل عليه ورثة «شولتو» أو «موريستان»، فلم نقم بكل ما فعلناه بـ

«آشميت» لكي يصبحوا هم أغنياء.. ستجدون الكنز المنتظر حيث يرقد كل من مفتاح الصندوق وجسد «تونجا» الضئيل.. لأنني عندما أيقنت أن زورقكم سيلحق بنا، قمت بإخفاء الكنز في مكان آمن لن تصلوا إليه أبدًا!

قال «جونز» بصرامة:

– أنت تكذب يا «سمول»! فلو أنك قمت بإلقاء الكنز بالنهر كما تزعم لكان من الأسهل عليك إلقاء الصندوق بالكامل!

أجابه «جوناثان» وهو يرمقه بنظرة جانبية خبيثة:

– كان هذا ليكون أسهل فعلًا، لكنه كان سيسهل عليكم استرجاعه كذلك! فالرجل الذي يملك ذكاءً كافيًا لتعقبي، لا بد أنه يملك ذكاءً كافيًا لإخراج صندوق حديدي من قاع النهر.. لكن لو قمت ببعثرته على مسافة حوالي خمسة أميال، فهذا كفيل بجعل مهمته عسيرة، أليس ذلك صحيحًا؟ ومع أن فعل ذلك قد آلمني بشدة، فقد ثار جنوني عندما لحقتم بنا.. لكنني على كل حال لا أحزن على شيء، فقد عشت الحياة بحلوها ومُرها، وأهم درس تعلمته هو ألا أبكي على اللبن المسكوب!

هتف «أثيلني»:

– هذا موضوع ضخم يا «سمول»، فلو أنك أعنت العدالة على اتخاذ مجراها عوضًا عن عرقلتها بفعلتك هذه، لكنت حظيت بفرصة أفضل خلال المحاكمة!

وهنا صاح السجين السابق بغضب:

– عدالة؟ عن أي عدالة تتحدث؟ من صاحب الحق بذلك الكنز لو لم يكن نحن؟ أين هي العدالة في إعطائه لمن لا يستحقه؟ أتريد أن تعرف كيف استحققته أنا؟ استحققته بحبسي لسنوات عدة –عشرين عامًا على وجه التحديد– بذلك المستنقع القذر، أعمل طيلة ساعات النهار تحت أشجار القُرم، وأقضي ساعات الليل مقيدًا بالأصفاد داخل أكواخ المساجين القذرة، لا يصاحبني غير لدغ الناموس ونوبات الحمى، اضطررت لتحمل تعذيب رجال الشرطة السود الملاعين الذين استمتعوا بكل لحظة عذاب أذاقوها لرجل أبيض مثلي.. هكذا أنا أستحق كنز «آجرا» اللعين أكثر من أي أحد آخر! لم أتحمل كل هذا لتأتي أنت الآن وتخبرني أن هناك من هو أحق بالكنز مني! أُفضل أن أشنق عشرين مرة، أو تُغرس سهام «تونجا» المسمومة في جسدي على أن يتم رميي بزنزانة وأنا أدرك أن هناك رجلًا آخر يتنعم بأموالي..

أزال «سمول» قناع الهدوء عن وجهه، فخرج منه كل هذا الكلام في انفعال، وقد التمعت عيناه غضبًا، بينما جلجلت أصفاده المعدنية مع ارتعاش يديه المنفعلتين.. عندما رأيته في ذروة غضبه وانفعاله، استوعبت كل ما طغى على الرائد «شولتو» من رعب عندما عرف بأن هذا السجين قد انطلق في أثره!

لكن هولمز تمالك أعصابه، فقال بنبرة شديدة الهدوء:

– لا تنسَ يا «سمول» أننا لا نعرف أي شيء من هذا، فلم نسمع قصتك بعد، ولا نعلم إلى أي مدى وقفت العدالة بصفك.

أجابه «سمول» بقوله:

– حسنًا.. أنت لم تعاملني إلا بكل احترام حتى هذه اللحظة يا سيدي، ومع أنك السبب في وضع هذه الأصفاد اللعينة حول يديَّ، فإنني لا أحمل تجاهك أي ضغينة كانت، فالموضوع كله حدث بطريقة عادلة وقانونية.. وإن رغبتَ بسماع قصتي، فلن أخفها عنك.. لكن قبل أن أحكي، يجب أن تعلم أن كل كلمة أتلوها عليك هي الحقيقة.. شكرًا لك، ربما يمكنك وضع الكأس بجواري حتى أرتشف منها كلما جف حلقي..

موطني هو «ورسترشاير»، وُلدت بالقرب من «بيرشور».. أعتقد أنك –لو قمت ببعض البحث– ستجد العديدين من عائلة «سمول» يعيشون هناك حتى الآن.. فكرت كثيرًا في الذهاب إلى هناك للبحث عنهم، لكن الحقيقة المؤسفة أنني لم أكن مصدر فخر للعائلة قط، ولا أظنهم ستسرهم رؤيتي. هم جميعًا ينتمون لتلك النوعية المستقرة والمتدينة من صغار المزارعين، والمعروفين بتلك المنطقة من الريف بالسمعة الجيدة، بينما كنت مشاغبًا في نظرهم.. وحينما بلغت الثامنة عشرة من عمري قررت إعفاءهم من مشكلاتي للأبد.. كنت قد تورطت وقتها في مشكلة بسبب فتاة، ولم يكن بوسعي الهروب منها إلا عن طريق التطوع في صفوف الجيش، فانضممت لكتيبة الملكة الثالثة، والتي كانت حينها على وشك الذهاب للهند.

لكن لم تكن مواصلة العمل في الجيش من نصيبي، فلم أكد أتعلم المشية العسكرية وكيفية التعامل مع البندقية، حتى قررت بحماقة الذهاب للسباحة في نهر «الجانج».. لحسن حظي كان رقيب فرقتي «جون هولدار» – وهو أحد أمهر السباحين ممن كانوا في الخدمة بالجيش – في النهر في ذلك الوقت.. هاجمني تمساح وأنا بمنتصف الطريق للضفة الأخرى، فقضم ساقي اليمنى وقطعها بالكامل من فوق الركبة مباشرة كما لو أن جراح محترف هو من قطعها! فقدت وعيي لحظتها؛ من الصدمة والنزيف، وكدت أن أغرق لولا أن أمسك «هولدار» بي، فسبح بي للشاطئ.. مكثت بالمستشفى خمسة شهور بعدها، صرت قادرًا أخيرًا على مغادرة المستشفى بمساعدة تلك الساق الخشبية المربوطة بجسدي، كنت أسير بصعوبة بالغة حقًّا، وفوجئت بأنني قد سُرِّحت من الجيش، وصرت غير نافع لأي وظيفة تتطلب مجهودًا جسديًّا!

شعرت بأن الحظ قد أدار ظهره لي، فقد وجدت نفسي فجأة كسيحًا عاطلًا عن العمل، بينما أنا لم أبلغ العشرين من عمري بعد.. لكنني لم ألبث أن استوعبت أن سوء حظي هذا كان منحة أتت لي في صورة محنة؛ فقد أتى إلى البلد رجل يدعى «آبلوايت»؛ لإقامة مزرعة لنبات «النيلة»، وقد احتاج وقتها لمشرف لملاحظة العمال وتشجيعهم على العمل.. كان ذلك الرجل صديقًا للكولونيل الذي اهتم بأمري منذ الحادث..

ولكيلا أطيل عليكم الحديث، فقد قام الكولونيل بترشيحي بقوة لتلك الوظيفة، ولأن معظم العمل من المفترض أن يكون من فوق ظهر حصان، فإن موضوع ساقي لم يمثل مشكلة، فالجزء المتبقي منها كان كافيًا لأتشبث جيدًا بالسرج.. كل ما توجب عليَّ أن أفعله هو التجول بحصاني في أنحاء المزرعة، لمراقبة الرجال خلال عملهم والإبلاغ عن المتكاسلين منهم.. أعترف أن الأجر كان

جيدًا، وأن مكان إقامتي كان مريحًا، فصرت قانعًا بقضاء ما تبقى من حياتي بين أسوار تلك المزرعة، وما زاد من شعوري هذا أن السيد «آبلوايت» كان رجلًا دمث الأخلاق، وكثيرًا ما مرَّ بكوخي لكي ندخن الغليون معًا، فالرجال البيض يشعرون في تلك الغربة بالألفة تجاه البيض الآخرين أكثر مما يفعلون هنا في الديار..

لكن الحظ الحسن سرعان ما خاصمني، ففجأة –دون إنذار– اندلع تمرد شديد ضدنا!

كانت الهند تبدو هادئة قبل هذا بشهر، مثل «سوراي» أو «كِنت»، لكن ظهر فجأة مائتا ألف من الشياطين السود الذين عاثوا في الأرض دمارًا وفسادًا، فتحولت البلد كلها لبؤرة من الجحيم.. أنتم طبعًا تعرفون عن هذا الموضوع أكثر مما أعرف عنه أيها السادة على الأرجح لأنني لا أهتم بالقراءة، ولا أعرف إلا ما أراه بعينيَّ.. كانت مزرعتنا في بلدة تدعى «ماثورا» تقع قرب حدود المقاطعات الشمالية الغربية للهند.. كانت السماء كلها تعكس النيران المشتعلة في البيوت الريفية كل ليلة، وكانت مجموعات صغيرة من الأوروبيين الذين أتوا بصحبة زوجاتهم وأبنائهم يمرون بأرضنا كل يوم في طريقهم إلى بلدة «آجرا»، حيث تمركزت أقرب فرقة من القوات العسكرية.. هل ذكرت لكم أن السيد «آبلوايت» كان رجلًا عنيدًا، وكان واثقًا من أن الناس تعطي الموضوع أكبر من حجمه، وأن تلك الثورات ستخمد فجأة كما بدأت؟ كانت البلد برمتها تحترق من حوله، بينما جلس هو بشرفة بيته يشرب الويسكي الممزوج بالصودا، ويدخن سجائر «شيرويت».. طبعًا بقينا معه أنا و«داوسون»، وكان هذا الأخير يساعده مع زوجته في الأعمال المتعلقة بالحسابات والإدارة.. ذات يوم وقعت الواقعة! كنت وقتها بمزرعة بعيدة عن المكان، عائدًا متمهلًا للمنزل مساء ممتطيًا حصاني، وهنا وقعت عيناي على كومة سوداء مستلقية أسفل مجرى مائي صغير.. وعندما اقتربت منها بحصاني في حذر لأتفقدها، فوجئت بأنها جثة زوجة «داوسون»، وقد قُطعت لأشلاء، التهمت الكلاب المحلية وبنات آوي نصفها على الأقل! ولم يكن هذا هو أسوأ شيء، فعلى مسافة بسيطة منها وجدت جثة «داوسون» نفسه مستلقيًا على وجهه فارغًا من الحياة، وقد أمسك بمسدس فارغ في يده، وأمام جثته ارتمت أربع جثث لمجندين هنود! انطلقت بحصاني وأنا أكابد أشد الحيرة، فإلى أين يمكن أن أذهب؟ وفي تلك اللحظة رأيت دخانًا كثيفًا يتصاعد من منزل السيد «آبلوايت» الريفي، وقد بدأت ألسنة النيران تشق طريقها عبر سطحه.. وهنا أدركت أنني لو حاولت التدخل فلن أتمكن من مساعدة رب عملي، بل سأكون كمن يلقي بنفسه إلى التهلكة، فمن مكاني استطعت رؤية مئات الرجال السود المتوحشين، وقد ارتدوا معاطفهم الحمراء، وهم يرقصون حول المنزل المشتعل وهم يطلقون عواءً عاليًا كالضواري.. وجدت بعضهم يشيرون نحوي، وسمعت صوت الرصاص وهو يندفع بجانب رأسي، فانطلقت هاربًا عبر حقول الأرز، حتى وجدت نفسي داخل أسوار «آجرا» الآمنة مع حلول الليل.. لكن سرعان ما اتضح لي أن حتى «آجرا» هذه ليست آمنة؛ لقد كانت البلدة برمتها تَئِزُّ كأنها خلية نحل.. كلما تجمع الإنجليز في مجموعة صغيرة، اهتموا بالسيطرة على المواقع التي يمكنهم حمايتها بالسلاح.. أما خارج تلك المناطق فكانوا مجرد هاربين لا حول لهم ولا قوة.. كانت معركة غير متكافئة، يخوضها مئات ضد ملايين، وأصعب شيء فيها كون الرجال الذين نقاتلهم –من جنود فرق المشاة والمدفعية

والخيالة– كانوا نفس المجندين الذين قمنا باختيارهم وتعليمهم وتدريبهم، فصاروا يقاتلوننا بأسلحتنا وينفخون في أبواقنا! اجتمعت كتيبة المشاة البنغالية الثالثة، وبعض السيخ، وفرقتا خيالة، وكتيبة مدفعية، اجتمعوا كلهم في «آجرا».. وتكونت مجموعة تطوعية من الكتبة والتجار، والتي تمكنتُ من الانضمام إليها بالرغم من ساقي الخشبية.. انطلقنا للقاء المتمردين في «شاه جونج» ببداية «يوليو»، وأجبرناهم على التراجع لبعض الوقت، لكن سرعان ما نفدت ذخائرنا مما اضطرنا للتراجع وراء أسوار المدينة.. انهالت علينا الأخبار السيئة من كل صوب، وهو ما لم يكن مستغربًا، فلو أنك نظرت لأي خريطة ستجد أننا كنا بقلب المعركة؛ لأن «لينكاو» تقع على مسافة أكثر من مئة ميل شرقًا، بينما تبعد «كاونبور» نفس المسافة جهة الجنوب.. أحاطت بنا أخبار القتل والتعذيب والاعتداءات من كل ناحية! كانت «آجرا» بلدة كبيرة تمتلئ بجميع أنواع المتطرفين وعبدة الشيطان المتوحشين، بينما تاه رجالنا المعدودون وسط أزقتها المتعرجة الضيقة.. لهذا قرر قائدنا عبور النهر بنا، قبل أن يتخذ من الحصن القديم ببلدة «آجرا» مقرًا لنا.. لا أعلم إن كان أحدكم قد قرأ أو سمع عن ذلك الحصن من قبل أيها السادة، لكنني أؤكد لكم أنه مكان عجيب.. أعجب مكان رأيته في حياتي، غير كل ما رأيته في حياتي من أماكن غريبة! أولًا، كان ذا مساحة كبيرة للغاية.. جزء منه كان حديث البناء، وهو الجزء الذي استقررنا فيه، فوضعنا به المؤن والزوجات والأطفال وكل شيء، لكن بقيت مساحة كبيرة منه فارغة بعد كل هذا.. لكن ليس هناك مجال لمقارنة حجم ذلك الجزء الحديث بحجم المبنى القديم، الذي لا يدخله أحد إلا العقارب.. كان المبنى القديم مليئًا بالردهات الخالية والأروقة المتعرجة، والممرات الطويلة الملتوية، فكان من السهل أن يتوه فيه المرء منا.. ولهذا السبب نَدَر أن يدخله أحدنا، وإن كانت هناك مجموعة منا تذهب لاستكشافه من وقت لآخر حاملين بعض المشاعل..

كان النهر يتدفق بمحاذاة أسوار واجهة الحصن القديم، فكان يحمي تلك الجهة، لكن كانت هناك العديد من الأبواب على الجانبين والخلف، ولهذا كانت حراسة تلك الأماكن ضرورية، سواء في المكان الذي تمركزت فيه قواتنا من الحصن الجديد، أم في المبنى القديم.. لكننا عندما تفقدنا الرجال والعتاد، وجدنا أن عدد الرجال الموجودين يكفي بالكاد لتغطية جميع زوايا المبنى وحمل الأسلحة، لهذا كان من المستحيل وضع حارس قوي لدى كل بوابة من البوابات الكثيرة.. قمنا بإعداد مركز حراسة بمنتصف الحصن، ووضعنا رجلًا أبيض يصاحبه رجلان أو ثلاثة من السكان المحليين للحراسة.. وقد وقع الاختيار عليَّ؛ للقيام بحراسة باب منعزل في جانب المبنى الجنوب غربي خلال ساعات الليل، وقد وُضع تحت قيادتي جنديان من فرقة الفرسان.. تلقيت تعليمات بإطلاق النار فور حدوث أي مشكلة، ليأتيني الدعم فورًا من مركز الحراسة.. لكن المشكلة أن المركز يبعد عن تلك البوابة بحوالي مائتي خطوة، ولأن المسافة بيننا تملؤها متاهة من الممرات والأروقة، فلم أكن متأكدًا من أنهم سيصلون في الوقت المناسب في حالة حدوث هجوم فعلي.. شعرت بالسعادة الشديدة لكوني أتولى تلك المهمة السهلة، نظرًا لأني قد جُنِّدتُ منذ فترة قصيرة بساقي الخشبية هذه.. توليت نوبة الحراسة مع جنديين بنجابيين مدة ليلتين، وكانا رجلين طويلي القامة ذوَي ملامح شرسة.. كان أحدهما يُدعى «محمد سينج»، والآخر «عبد الله

خان»، وكان كلاهما رجلي حرب قديمين، وقد حملا السلاح ضدنا في معركة «تشيليانوالا».. كانا يتحدثان الإنجليزية بطلاقة، لكنني لم أتمكن من اجتذابهما للحديث معي إلا قليلًا.. كانا يفضلان الوقوف للثرثرة معًا طيلة الليل بلغة السيخ الغريبة، بينما اعتدت أنا على الوقوف خارج البوابة أتطلع للنهر العريض المتعرج، وأضواء المدينة الكبيرة التي تلألأت على مبعدة.. قرع الطبول، وصياح المتمردين، وعواؤهم وهم ثملون؛ من أثر الأفيون والقنب المخدر، تكفل كل هذا بتذكيرنا طيلة الليل بجيراننا المتوحشين القابعين على الجانب الآخر من النهر.. كان الضابط المسؤول عن وردية المساء يمر بجميع المواقع؛ ليتأكد من أن كل شيء على ما يرام.. في ثالث ليلة لنا، قضيت نوبة حراستي وسط الظلام والوحل. وبينما تساقط القليل من الأمطار الغزيرة، وكان الوقوف بالمدخل في تلك الساعة المتأخرة أمرًا مُقبضًا.. حاولت لأكثر من مرة أن أحمل الجنديين على تبادل الحديث معي بلا جدوى..

وفي الساعة الثانية صباحًا مرت دوريات الحراسة فحطمت سكون الليل للحظات معدودات.. بعد فقداني الأمل في فتح سبل الحديث مع رفيقيَّ هذين، قمت بإخراج غليوني واضطررت لوضع بندقيتي جانبًا كي أتمكن من إشعال عود الثقاب.. وفي تلك اللحظة فوجئت بالسيخيين ينقضان عليَّ بسرعة، فخطف أحدهما بندقيتي وصوبها نحو رأسي، بينما وضع الآخر سكينًا ضخمًا على عنقي، مُهددًا إياي بذبحي لو بدرت مني أقل حركة!

في البداية ظننت أن هذين الرجلين متعاونان مع المتمردين، وأن هذه مجرد بداية لهجوم مدبر.. لو أن بوابتنا سقطت في أيدي المتمردين الهنود، فسيسقط الحصن، وسينتهي الأمر بنسائنا وأطفالنا، ليُعاملوا كما كانوا يعاملون في «كاونبور»، أو أسوأ.. ربما تعتقدون أنني أقول هذا لكي أدعم موقفي، لكنني أقسم لكم أنه عندما خطرت تلك الفكرة الأخيرة ببالي، ومع من أنني شعرت بنصل السكين على عنقي، فإنني فتحت فمي ناويًا الصراخ، لتحذير حرس المركز الرئيس، حتى لو كان هذا آخر ما سأفعله في حياتي!

لكن يبدو أن الرجل الذي كان خلفي قد قرأ أفكاري، لأنني بينما كنت أستعد وآخذ نفسًا عميقًا لكي أصرخ بكل قوتي، وجدته يميل ليهمس في أذني فجأة: «لا تحدث ضجيجًا، فهذا الحصن بأمان لا يهدده شيء، ولا يوجد أي متمردين في ذلك الجانب من النهر...» شعرت بصدق نبرته، وعرفت أنني لو رفعت صوتي فلن يتردد ولو للحظة في ذبحي، فقد ارتسمت رغبته واضحة في عينيه البنيتين، لهذا قررت إغلاق فمي، في انتظار معرفة ما ينويان فعله بي.

بادرني أطولهما قامة -والذي كان أشرسهما طباعًا كذلك، وكان يدعى «عبد الله خان»- بالقول:

- اسمع يا صاحبي، إما أن تنضم لنا الآن، وإما نسكتك للأبد.. الموضوع أكبر من أن نتردد بصدده.. فإما أن تكون معنا بكل جوارحك، وتقسم بصليب المسيحيين على هذا، وإما أن نقتلك فنرمي بجثتك الليلة في قاع القناة، قبل أن نعبر لإخواننا في جيش الثوار.. ليس أمامك اختيار آخر، فماذا سيكون اختيارك؟ الحياة أم الموت؟ أمامك ثلاث دقائق فقط لتقرر.. الوقت يمضي، ويجب أن نفعل ما يتوجب علينا فعله قبل مرور دوريات الحراسة مرة أخرى!

أجبته:

– وكيف سأتمكن من الاختيار وأنتما لم تقولا ماذا تريدان مني بعد! لكن عمومًا، لو كان ما تطلبانه سيتسبب في تعريض هذا الحصن للخطر، فمستحيل أن أشترك فيه، ويمكنك ذبحي بهذا السكين من الآن!

لكنه فاجئني قائلًا:

– لن يتعرض الحصن للخطر؛ كل ما نريده منك هو أن تفعل الشيء الذي أتى بقومك إلى هنا، كل ما نريده منك أن تصبح غنيًّا.. فلو أنك انضممت لنا الليلة، فسنُقسم بحد السكين، وبالقسم الثلاثي الذي لم ينقضه أي رجل من السيخ قبلُ، بأن تحصل على نصيبك العادل من الغنيمة.. سيصبح ربع الكنز ملكًا خالصًا لك، وهذا هو العدل!

سألته:

– لكن أي كنز هذا الذي تتحدث عنه؟ بالتأكيد أنا على أتم الاستعداد لأصبح غنيًا لو أخبرتماني الطريق لهذا!

قال:

– أتقسم لنا برفات والدك، وشرف أمك، وصليب عقيدتك، ألا ترفع يدك علينا أو تتحدث عنا بسوء، سواء الآن أو فيما بعد؟

أجبت:

– أقسم لكما على ذلك، بشرط عدم تعرض الحصن للخطر!

وهنا رفع يده قائلًا: «وأنا أقسم، أنا ورفيقي هذا، على إعطائك ربع الكنز الذي سنقتسمه بيننا نحن الأربعة قسمة عادلة!».

سألته مستغربًا:

– لكننا ثلاثة فقط!

أجابني:

– يجب أن يحصل «دوست أكبر» على نصيبه أيضًا.. سنخبرك بالقصة أثناء انتظارنا يا صاحبي، سأطلعك لأنني أعرف أن الإنجليز قوم يحترمون قسمهم، وأعرف أننا نستطيع الثقة بك.. أما لو كنت هنديًّا كذابًا، لكنا أرقنا دمك منذ زمن وألقينا بجثتك في الماء مهما أقسمت بكل الآلهة في معابدها المزيفة! لكننا معشر السيخ نعرف الإنجليز كما يعرف الإنجليز قومنا السيخ.. استمع لما سأحكيه لك إذن! هناك أمير في المقاطعات الشمالية، وهذا الأمير لديه ثروة طائلة، مع أنه لا يمتاك مساحة شاسعة من الأراضي، فقد ورث عن والده الكثير منها، كما جمع الكثير بنفسه، وهو بخيل الطبع يفضل اكتناز الذهب عن إنفاقه.. وعندما اندلعت المشكلات في البلد، صار حليفًا للخصمين: الثوار، ورجال شركة الهند الشرقية.. لكن سرعان ما أدرك أن أيام الرجال البيض قد انتهت؛ فقد كانت أخبار قتلهم والإطاحة بهم تأتي له من كل حدب وصوب يوميًا.. كان رجلًا حريصًا، فوضع خطة تكفل له الاحتفاظ بنصف ثروته على

الأقل مهما حدث للبلاد.. احتفظ بالذهب والفضة بجواره داخل خزائن قصره العامرة، لكنه وضع أقيم ما لديه من الأحجار الكريمة والنفيسة، واللآلئ النادرة داخل صندوق حديدي، أرسله مع خادم أمين متنكر في صورة تاجر لحصن «آجرا»، كي يقوم بإخفائه هناك حتى تستقر الأوضاع في البلاد.. وهكذا لو حدث وانتصر الثوار، ستكون أمواله معه، أما لو انتصر جنود شركة الهند الشرقية، ستكون جواهره وقتها في الحصن محفوظة بأمان.. بعدما قام بتقسيم ثروته بتلك الطريقة، قام بتوجيه جهوده كاملة لدعم الثوار، لأنهم كانوا الأقوى عند حدود مقاطعته.. وبقيامه بهذا يا صاحبي، فقد صارت كنوزه ملكًا لأولئك الذين لا يزالون مخلصين لقضيتهم!

أما خادمه الذي تنكر في صورة تاجر، وكان مسافرًا باسم «آشميت»، فهو موجود الآن بمدينة «آجرا»، راغبًا في الدخول للحصن.. وقد رافقه في سفره أخي غير الشقيق «دوست أكبر»، والذي عرف سره، وقد وعده «دوست أكبر» بأن يدله الليلة على بوابة خلفية جانبية لهذا الحصن، وطبعًا اختار هذه البوابة التي نحرسها، وهو على وشك الوصول، ليجدني أنا و«محمد سينج» في الانتظار.. هذا المكان منعزل بالكامل وهكذا لن يعرف أي شخص غيرنا بوصولهما.. سيختفي التاجر المزيف «آشميت» من على وجه الأرض، وسيقسم كنز الأمير الضخم بيننا.. ما قولك في هذا يا صاحبي؟

****

واستكمل «سمول» حكايته:

- حياة المرء لها أهمية مقدسة في «ورسترشاير»، أما هنا فالأمور مختلفة تمامًا، لكونك محاطًا من كل جانب بالدماء والنيران، تجد نفسك تدريجيًا قد اعتدت على رؤية الموت في كل ركن.. لم أبالِ بمسألة حياة التاجر «آشميت» هذا أو موته، فلم يكن هذا فارق عندي، أما ذلك الحديث عن كنز «آجرا» فقد أشعل رغبتي بامتلاكه، وبدأت أتخيل ما سأقوم بفعله به بعدما أعود لبلدتي القديمة، وما سيكون رد فعل عائلتي مع رؤيتهم لابنهم عديم النفع بعد كل تلك السنوات بمثل هذه الثروة، وهنا حسمت رأيي! لكن «عبد الله خان» ظن أني ما زلت مترددًا، فألح عليَّ بالقول:

- فكر جيدًا يا صاحبي أولًا قبل أن تقرر.. لو اعتقل قائد الحصن هذا الرجل سيقتله من فوره.. سيشنقه أو يرديه بالرصاص، وفي النهاية ستستولي الحكومة على الكنز في بطونها، ولن ينال أحدٌ منه روبية واحدة.. لكن بما أنه سيقع في أيدينا أولًا، فلم لا نستولي نحن على الكنز؟ ستكون المجوهرات في أمان تام معنا، كما لو كانت في خزائن شركة الهند الشرقية هذه.. سيحصل كل واحد منا على نصيب كافٍ لجعله رجلًا غنيًا ذا شأن كبير، ولن يعرف أحد غيرنا بالأمر، فهنا مكان منعزل عن الجميع.. هل يوجد مكان أنسب من هذا لتنفيذ مثل تلك الخطة؟ والآن أخبرنا يا صاحبي، هل أنت معنا، أم نعتبرك من هذه اللحظة عدونا؟

أجبته:

- معكم بكل جوارحي!

ناولني بندقيتي ثانية وهو يقول:

– عظيم، سنثق بكلمتك وعليك الالتزام بها كما سنلتزم نحن بكلمتنا.. والآن كل ما علينا فعله هو الانتظار..

سألته:

– لكن هل يعرف أخوك بما تنوي فعله؟

وهنا أجابني:

– هو من وضع الخطة من الأساس.. هيا نذهب للبوابة ولنعاون «محمد سينج» على حراستها..

استمرت الأمطار الغزيرة بلا توقف، فقد كنا لا نزال في بداية موسم الأمطار، تزاحمت السحب البنية الكثيفة في الأعلى فغطت السماء؛ ما جعل الرؤية صعبة إلا لمسافة بسيطة.. أمام الباب كان هناك خندق مائي، لكن المياه جفت في أكثر من موضع منه؛ ما جعل عبوره سهلًا.. شعرتُ بغرابة وقوفي مع هذين البنجابيين الشرسين في انتظار رجل آتٍ ليَلقى حتفه على أيدينا!

أبصرت على الجانب الآخر من الخندق بصيصًا خافتًا من الضوء، لكنه سرعان ما اختفى بين الأنقاض، قبل أن يعاود الظهور من جديد، متقدمًا ببطء نحونا..

هتفت:

– ها هما قد وصلا!

وجدت «عبد الله» يهمس:

– ستقوم أنت يا صاحبي باعتراض طريقه كالعادة، وحاذر من فعل أي شيء قد يثير خوفه.. فقط أرسله للداخل وسنقوم نحن بالتكفل بكل شيء، بينما ستبقى أنت هنا للحراسة.. جهز نفسك لإزالة غطاء المصباح للتأكد من أنه رجلنا..

استمر بصيص الضوء في التقدم نحونا تارة، ثم يتوقف تارة أخرى، قبل أن يعاود التقدم من جديد، حتى ظهر لي جسدان داكنان على الجهة الأخرى من الخندق. تركتهما ينزلان حافة الخندق المنحدرة، قبل أن يتقدما عبر الوحل، ثم يصعدان حتى منتصف الطريق للبوابة، قبل أن أقوم باعتراض طريقهما.. قلت بصوت خافت حاولت إخفاء ما فيه من توتر قدر إمكاني:

– من أنتما؟

فكانت الإجابة:

– صديقان.

رفعت الغطاء عن مصباحي، فغمر ضوؤه وجهيهما، ولمحت أن أحدهما سيخيٌّ ضخم الجسد ذو لحية سوداء غزيرة تمتد حتى خصره، كان بالغ الطول بطريقة لم أشاهد مثلها طيلة حياتي إلا في العروض الترفيهية.. أما الرجل الآخر فكان على عكسه، قصير القامة ذا جسد بدين مكتنز، ويرتدي عمامة صفراء ضخمة، بينما حمل في يده شيئًا ملفوفًا في وشاح.. بدا الرجل الثاني مرعوبًا للغاية، يداه ترتعشان كما لو كان يعاني من الملاريا.. أخذ يتلفت برأسه يمينًا ويسارًا وهو ينظر بعينيه الضيقتين اللامعتين كأنه فأر على وشك الخروج من جُحره.. شعرت بقشعريرة تغزو جسدي عندما فكرت في أننا

موشكون على قتل رجل غافل، ثم تذكرت موضوع الكنز! وساعتها شعرت بقلبي يقسو داخل صدري كأنه حجر.. حين لمح الرجل البدين وجهي الأبيض أطلق صيحة تنمُّ عن السعادة قبل أن يركض نحوي..

قال لاهث الأنفاس:

– أريد حمايتك يا سيدي، احمِ التاجر المسكين «آشميت».. لقد سافرت عبر «راجبوتينا» كي أحتمي بحصن «آجرا» العظيم.. لقد سُرقت وضُربتُ، لأني مناصر لشركة الهند الشرقية.. ستكون هذه ليلة سعادتي لو قبلت حمايتي أنا وممتلكاتي المتواضعة!

سألته بصوت خافت:

– ماذا يوجد معك في هذه اللفافة؟

فأجابني:

– مجرد صندوق حديدي يحوي متعلقات عائلية لا قيمة لها عند الآخرين، لكن قلبي سيتحطم لو فقدتها.. لكنني لست بمتسولٍ يا سيدي الشاب، وسأكافئك أنت وقائدك لو آويتماني ومنحتماني الحماية والأمان.

لم أرغب في إطالة الحديث معه أكثر من هذا، لأنني وجدت أنني كلما نظرت لوجهه البدين الممتلئ بالخوف، شعرت أن قتله أثقل وطأةً عليَّ.. ربما من الأفضل لو نُنهي هذا الموضوع سريعًا.. قلت لشركائي بالجريمة: «فلتأخذاه للمركز الرئيس...»

وهنا قام السيخيَّان بمحاصرته، وتبعهما العملاق، وراقبتهم وهم يمرون عبر البوابة المظلمة.. لا أظن الموت قد حاصر أحدهم من قبل كما يحاصره الآن من كل ناحية.. تسمرت مكاني عند المدخل وقد أمسكت بالمصباح.. سمعت صوت خطواتهم المنتظمة تدوي عبر الممرات الخاوية، قبل أن تتوقف خطواتهم فجأة، ويرتفع صوت حديثهم، الذي لم يلبث أن تحول لشجار، صاحبته أصوات ضربات!

ارتفع بعد لحظة صوت خطوات تعدو نحوي، وصوت لهاث شخص يجري، وهو الشيء الذي أثار رعبي، فوجهت ضوء مصباحي صوب الممر الطويل، وبينما لمحت الرجل البدين يجري ليسابق الريح، وقد سالت الدماء من وجهه! كان السيخيُّ العملاق ذو اللحية السوداء يعدو وراءه كنمر يطارد غزالًا، وقد التمع نصل السكين الذي يحمله.. لم أر طيلة حياتي من يجري بمثل هذه السرعة كذلك التاجر القصير.. جرى التاجر وقد تخطى السيخيَّ، وأيقنت أنه لو تمكن من الإفلات مني؛ فسيخرج للعراء وسينجو بنفسه.. صحيح أن قلبي قد رقَّ له في تلك اللحظة، لكن تذكري للكنز كان كفيلًا بتحجر قلبي وإشعال الحقد بداخله.. أطلقت النار من بندقيتي بين قدميه حين تمكن من تخطي موقعي وهو يجري، فرأيته يتشقلب مرتين كأنه أرنب أصابته طلقة.. وقبل أن يتمكن من الوقوف، كان الرجل السيخيُّ قد انقض عليه بشراسة وطعنه في جنبه طعنتين بسكينه.. لدهشتي لم يتألم الرجل ولا أصدر أي رد فعل، بل ظل راقدًا مكانه حيث سقط بلا أدنى حركة، فظننته قد كسر عنقه جراء تلك السقطة.. وها أنا ذا – كما ترون أيها السادة– أفي بقسمي، فلقد حكيت على مسامعكم تفاصيل ذلك الموقف كما حدثت بالحرف، بلا أي زيادة أو نقصان، سواء كان ما قصصته في صالحي أم لا..

****

بعد هذا سكت الرجل للحظة، ومد يديه المكبلتين، فتناول كأس الويسكي الممزوجة بالماء الذي قام هولمز بإعدادها له.. أعترف أنني شعرت بأنه رجل بشع، ليس فقط لتورطه في مثل تلك الجريمة الشنيعة التي حكاها على مسامعنا للتوّ، وإنما أيضًا بسبب أسلوبه اللامبالي والوقح في سرد تفاصيلها كأنما لا يخشى عواقب فعلته.. أيًّا كان العقاب الذي ينتظره، فلا أظنني سأتعاطف معه.

جلس «هولمز» و«جونز» وقد وضعا أيديهما فوق ركبتيهما، وقد ارتسمت على وجهيهما نفس نظرة الامتعاض مما سمعوه.. ربما يكون الرجل قد لاحظ هذا المسلك منهما، ففي تلك اللحظة تزايدت نبرة التحدي بصوته، وأكمل حكايته المقيتة:

- أعرف أن ما فعلته كان شنيعًا، لكن كم رجل سينجح لو وُضع في نفس الاختبار؟ كم رجل سيرفض مثل تلك الغنيمة، لو عرف أنه سيذبح بلا شفقة لو رفض؟ بالإضافة لهذا، فقد صارت حياته مقابل حياتي بمجرد دخوله عبر أسوار الحصن، فلو تمكن من الفرار من الحصن، لكان الأمر قد انكشف بالكامل، ولكنت خضعت لمحاكمة عسكرية قبل إعدامي رميًا بالرصاص في الغالب، فهم لا يتساهلون مع مثل هذه التصرفات!

قال هولمز بتؤدة:

- أكمل حكايتك..

- حسنًا، تعاونا أنا و«عبد الله» و«أكبر» على حمل جسده للداخل، فمع قصر قامته، كان ثقيل الوزن.. تركنا «محمد سينج « ليقوم بحراسة الباب، بينما أخذه بقيتنا لمكان قام السيخيَّان بإعداده مسبقًا.

كان ذلك المكان بعيدًا، يقع بعد ممر ملتوٍ ينتهي بردهة واسعة خالية ذات جدران من الطوب المتهدم.. كانت أرضية تلك الردهة –والتي كانت من الطين – هابطة في أحد جوانبها كأنها قبر طبيعي، وهناك تركنا جسد التاجر «آشميت» بعدما غطيناه ببعض قطع الطوب، وبعد أن انتهينا من تلك المهمة عدنا إلى الكنز!

كان الكنز في نفس المكان الذي سقط فيه من أيدي التاجر حينما هاجموه أول مرة، وكان داخل نفس هذا الصندوق الحديدي الذي ترونه جميعًا مفتوحًا على هذه المنضدة.. كان مفتاحه مربوطًا بشريط من الحرير بالمقبض المنقوش الموجود بأعلى الصندوق.. حينما فتحناه لمعت تحت ضوء المصباح عشرات الجواهر التي خطفت أبصارنا، والتي كنت قد قرأت عنها في طفولتي في «بيرشاور».. بعد أن أمتعنا عيوننا بالنظر لها لبعض الوقت، أفرغنا الصندوق بالكامل، ثم كتبنا قائمة بمحتوياته.. كانت ترقد بداخله مئة وثلاث وأربعون قطعة من الألماس النقي، وأعتقد أن إحداها كانت تدعى «المغولي الأعظم»، والتي يقال عنها أنها ثاني أكبر قطعة ألماس بالعالم.. هناك أيضًا سبع وتسعون زمردة، ومئة وسبعون ياقوتة حمراء، بعضها صغير الحجم للغاية، وكان هناك أيضًا مائتان وعشر حجرات من الياقوت الأزرق، وأربعون حجرًا من العقيق الأحمر، وواحد وستون حجرًا من العقيق، بالإضافة لعدد كبير من الزبرجد والعقيق اليماني، وعين القط، والكثير من قطع الفيروز كذلك، بجانب الكثير من الأحجار الكريمة الأخرى التي لم أكن أعرف اسمها لحظتها.. هل ذكرت الثلاثمئة اللؤلؤة التي زينت اثنتا عشرة

واحدة منها إكليلًا من الذهب الخالص؟ وبمناسبة ذكرها، فتلك اللآلئ لم تكن موجودة في الصندوق حين أخذته..

بعد أن حصرنا المجوهرات كلها قمنا بإعادتها للصندوق من جديد، ثم حملناه للبوابة كي نُريه لشريكنا «محمد سينج».. ثم أعدنا القسم بأن يقف كل واحد منا بجانب الآخر ونحفظ سرنا بكل جوارحنا.. اتفقنا على إخفاء غنيمتنا الثمينة في مكان سري آمن حتى تستقر الأوضاع في البلاد من جديد، وحينها نقوم بتقسيمه علينا، فلم يكن ثمة داع لتقسيمه وقتها، لأنه لو شاهد أحدهم بأي طريقة مثل تلك المجوهرات الثمينة مع أي منا ستثير ريبته، كما أنه لا وجود للخصوصية في هذا الحصن، لهذا يصعب أن نحتفظ به فيه، وبالتالي قمنا بحمل الصندوق للردهة نفسها التي دفنَّا فيها الجثة منذ ساعات، وصنعنا فتحة خلف بعض قطع الحجارة في أكثر جدران الردهة تماسكًا، وبتلك الفتحة أخفينا الكنز..

حفظنا المكان عن ظهر قلب، ورسمنا اليوم التالي أربع خرائط، أخذ كل واحد منا إحداها، ووقعنا على أربع خرائط بـ «علامة الأربعة»، فقد أقسمنا أن يتصرف كل واحد فينا لمصلحة المجموعة، كي لا يحاول أحدنا التفكير في مصلحته الشخصية فيتسبب في أذية الباقين، ويمكنني بكل فخر أن أعلن أنني لم أخُن هذا القسم قط!

ليس هناك داعٍ لأخبركم بنتائج التمرد الذي حدث في الهند، فبعد أن سيطر «ويلسون» على بلدة «دلهي» وقام السير «كولين» بتحرير «لاكناو»، انتهى أمر المتمردين.. انهالت قوات الدعم علينا، وسرعان ما هرب الصاحب «نانا» خارج الحدود.. جاءت وحدة برية يقودها الكولونيل «جريثهيد» وأخلوها من المتمردين..

بدأ السلام يعم أنحاء البلاد رويدًا، واشتعلت آمال أربعتنا في استعادة كنزنا ومغادرة الحصن ونحن نحمله في أمان.. لكن تلك الآمال الزائفة لم تلبث أن تبددت في لحظة، حينما قبض علينا بتهمة قتل «آشميت»!

ما حدث كان كالتالي: حينما عهد الأمير بجواهره لـ «آشميت»، كان قد فعلها لما يعرفه عنه من أمانة، لكن لأن الرجال الشرقيين شكاكون بطبعهم فقد قام الأمير بإرسال خادم آخر –يثق فيه أكثر– خلفه ليتجسس عليه، وقد أصدر أوامره للخادم الثاني بألا يترك «آشميت» يغيب عن نظره ولو للحظة، ومتابعته كظله.. وقد تتبعه في تلك الليلة ورآه يعبر البوابة، فظن لحظتها أنه لجأ للحصن طلبًا للأمان، فتقدم هو الآخر طالبًا الدخول في اليوم التالي، لكنه لم يعثر على «آشميت» في أي مكان في الحصن.. وهنا ارتاب الخادم في الأمر وتقدم لرئيس الحرس ونقل له شكوكه، فقام هذا الأخير بنقلها للقائد. وقامت على الفور عملية بحث محمومة بكل أرجاء الحصن، فلم يتركوا حجرًا فوق حجر، وفي النهاية عثروا على الجثة.. وهكذا في نفس اللحظة التي ظننا فيها أننا قد صرنا بأمان، قبض علينا جميعًا بتهمة القتل العمد؛ ثلاثة منا لأننا كنا نقوم على حراسة البوابة التي دخل عبرها القتيل بتلك الليلة المشؤومة، والرابع لأنه دخل برفقة القتيل عبرها.. لم يرد أي ذكر لصندوق الكنز خلال المحاكمة؛ فقد عُزل الأمير من منصبه وطُرد من البلاد، لهذا لم يُعر أحدهم لممتلكاته أي اهتمام. لكن جريمة القتل انكشفت، وكان من

المؤكد بالعديد من الأدلة أننا مشتركون فيها، وهكذا حُكم على السيخيين الثلاثة بالسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة، بينما حُكم عليَّ أنا بالإعدام، لكن عقوبتي خُففت فيما بعد فصارت مثل باقي شركائي في الجريمة.

صار وضعنا شديد الصعوبة، فقد صرنا مكتوفي الأيدي بلا أدنى أمل للخروج من السجن، بينما نكتم داخل صدورنا سرًا لامعًا كفيلًا بأن يُسكننا في قصور لو تمكنا من الوصول له.. كدنا نُجنُّ من اضطرارنا لتحمل ركلات حرس السجن المنتفخين غرورًا، ومع اضطرارنا لأكل الأرز وشرب الماء فقط، بينما هناك ثروة طائلة قابعة تنتظر أربعتنا في الخارج.. كان كل هذا كفيلًا بإصابتي بالجنون، لكنني لطالما تميزت بالعناد، لهذا تمالكت نفسي، وظللت أتحين الفرصة المناسبة..

لاحت لي تلك الفرصة أخيرًا عندما تم نقلي من «آجرا» إلى «ميدراس»، ومنها تم نقلي لجزيرة «بلاير» في جزر «آندمان».. كان عدد الرجال البيض قليلًا للغاية في تلك المستعمرة، ولأني كنت حسن التصرفات منذ بداية وجودي هناك، فقد صرت بعد مرور فترة قصيرة سجينًا له العديد من الامتيازات، وأودعوني بكوخ في «هوب تاون»، وهي مكان صغير يقع على منحدرات جبل «هارييت»، وتركوني أتصرف بحرية.. كان مكانًا موحشًا، تفشت فيه الحُمى، ويمتلئ بالسكان الأصليين المتوحشين من آكلي لحوم البشر، وكانوا على أتم الاستعداد لقتلنا بسهامهم المسمومة لو واتتهم الفرصة!

دارت بعض أعمال التنقيب وحفر الخنادق وزراعة نبات «اليام»، والعديد من النشاطات الأخرى، ولهذا كنا مشغولين طيلة النهار، لكن بالمساء كانت أمامنا الفرصة لفعل ما نشاء، ومن ضمن ما تعلمته كان تركيب العقاقير للجراح الموجود معنا، فاكتسبت بعض المعرفة السطحية بهذا المجال..

كنت أتحين الفرصة للهرب طيلة الوقت، لكن المشكلة الكبرى أننا نبعد مئات الأميال عن أي جزيرة أخرى، وكانت الرياح في هذا المكان ضعيفة للغاية، لهذا كان أمل الهروب من تلك الجزيرة ضئيلًا. كان الجراح طبيبًا شابًّا يُدعى «سوميرتون»، وكان شابًّا ذكيًّا، لا يعيبه إلا إدمانه للقمار. اعتاد الضباط على الاجتماع بحجرته كل ليلة للعب القمار..

كانت العيادة التي أقوم بتركيب العقاقير فيها ملاصقة لحجرة جلوسه، لا تفصلهما إلا نافذة صغير.. حينما أشعر بالوحدة أغلق مصباح غرفة الجراحة، فأستمع لأحاديثهم أو أراقبهم أثناء لعبهم من مكاني بجوار تلك النافذة.. كنت مثلهم مولعًا بلعب الورق، وحينما كنت أشاهدهم يلعبون، أتخيل نفسي ألعب معهم.. كان هؤلاء الضباط هم الرائد «شولتو» والنقيب «موريستان»، ومعهما ملازم اسمه «بروميلي براون»، وهم المسؤولون عن قيادة القوات المحلية، يصاحبهم الجراح «سوميرتون»، واثنان أو ثلاثة آخرون من مسئولي السجن، وكانوا شديدي المهارة في اللعب، وتميل نفوسهم للعب المضمون.. كانوا جماعة صغيرة العدد هادئة الطباع..

لكنني لاحظت بعد فترة قصيرة من مراقبتهم شيئًا غريبًا، أن العسكريين كانوا يخسرون دومًا، بينما يكون الموظفون المدنيون هم الرابحون دائمًا! لا أقصد أنه كان هناك أي غش يحدث، لكن هكذا كانت تجري الأمور، فالحراس لم يكونوا يفعلون الكثير منذ جاءوا لجزر «آندمان» هذه، فكان كل منهم

يعرف أسلوب الآخرين في اللعب نوعًا ما، بينما لم يكن الجند يلعبون لغرض غير التسلية والترفيه، وكانوا يلقون أوراقهم بلا اهتمام..

كان الجنود يغادرون منضدة اللعب وهم أفقر مما كانوا عليه عندما جلسوا عليها ليلة وراء الأخرى، وكلما ازداد فقرهم، زاد حماسهم للعب أكثر.. كان الرائد «شولتو» هو أكثرهم تضررًا، فقد اعتاد في البداية أن يلعب بالنقود والذهب، لكنه سرعان ما صار يلعب بكمبيالات بمبالغ كبيرة أحيانًا.. أحيانًا كان يفوز بعدة جولات، فيثير هذا حماسه، الذي لا يلبث أن يفتر حين يتخلى عنه حظه أكثر من السابق.. اعتاد أن يهيم على وجهه طيلة النهار وقد سيطر عليه الغضب، وصار يحتسي الخمر بكميات ضخمة كفيلة بالإضرار بصحته.

أتت عليه ليلة كانت خسائره فيها أكثر من المعتاد، وكنت وقتها جالسًا في كوخي عندما رأيته يأتي مترنحًا وقد صاحبه النقيب «مورستان»، عائدين لمنزليهما، -كانا صديقين مقربين قلما يفترقان- وسمعت الرائد ليلتها يشكو لصديقه بغضب شديد موضوع خسائره المتواصلة.

كانا يمران بجوار كوخي عندما سمعته يقول لرفيقه:

- لقد انتهيتُ يا «موريستان».. لقد أفلست بالكامل.. سأضطر لتقديم استقالتي!

ربت صاحبه على كتفه قائلًا:

- لا تفكر هكذا يا صديقي العزيز، أنا أيضًا واجهت مشكلة صعبة، لكن...

كان هذا هو كل ما تمكنت من سماعه من حديثهما، لأنهما ابتعدا في طريقهما، لكن ما سمعته كان كافيًا ليجعلني أفكر في خطة..

بعد عدة أيام، كان الرائد «شولتو» يتمشى على الشاطئ، فقررت انتهاز الفرصة للتحدث معه.

فقلت له:

- أرغب في استشارتك في شيء ما أيها الرائد، ممكن؟

أجابني وهو يخرج سيجاره من فمه:

- حسنًا، ما الأمر يا «سمول»؟

- أريد سؤالك عمن هو أفضل شخص قد تعهد له بكنز مخبأ؟ أعرف مكان كنز يساوي نصف مليون جنيه على الأقل، ولأنني لا أستطيع الانتفاع منه بحالتي هذه، فقد فكرت في تسليمه للسلطات، علَّ هذا يثير شفقتهم نحوي فيخففوا من فترة عقوبتي الطويلة.

لم يتمالك نفسه فشهق وهو يهتف بينما يتفرس ملامحي ليتأكد من صدق اعترافي:

- نصف مليون جنيه؟

- نعم يا سيدي، لكنه ليس مالًا سائلًا، وإنما في صورة مجوهرات وأحجار كريمة، وترقد بانتظار من يأخذها. والعجيب بالأمر أن مالكها الحقيقي خارج عن القانون، فلا يحق له المطالبة بها، لهذا ستصبح ملك صاحب الحظ السعيد الذي يضع يده عليها..

تلعثم وهو يجيبني:

– الحكومة يا «سمول».. الأفضل أن تسلمها للحكومة..

لكن صوته خانه، فخرج مترددًا، فأيقنت لحظتها أنني جذبت انتباهه، وسأتمكن من إسقاطه في شباكي..

سألته بهدوء:

– هل تعتقد أنني يجب أن أعترف بما لدي من معلومات للحاكم العام؟

– حسنًا، لو أنك أردت رأيي، أرى ألا تتسرع بفعل ذلك؛ وإلا ستندم على الأرجح، أخبرني بالقصة كاملة يا «سمول»، واتلُ عليَّ كل الوقائع.

تلوتُ على مسامعه القصة كاملة، لكنني كنت فطنًا بما فيه الكفاية لأغير بعض التفاصيل كي لا يتعرف على مكان وجود الكنز. بعدما انتهيت وجدته ساكنًا بلا حراك، وقد بدت عليه أشد معالم التفكير العميق، وأدركت من ارتجاف شفتيه مدى الصراع الداخلي الدائر في أعماقه..

في النهاية قال:

– هذا موضوع شديد الخطورة، وأنصحك ألا تتفوه بكلمة واحدة عنه لمخلوق حتى أراك ثانية في أقرب وقت ممكن.

وبعدها بليلتين وجدته يظهر مع صديقه المقرب النقيب «موريستان» عند كوخي بمنتصف الليل بصحبة مصباح، وقال لي:

– أريد أن يسمع النقيب «موريستان» القصة ثانية من فمك يا «سمول»!

ومن جديد تلوت نفس القصة، بنفس التغييرات التي قمت بها في التفاصيل..

قال في النهاية:

– تبدو قصة حقيقية جديرة بالتفكير، أذلك صحيح؟

أومأ النقيب «موريستان» برأسه إيجابًا دون كلام، وهنا قال الرائد:

– اسمع يا «سمول»، لقد تناقشت مع صديقي النقيب في هذا الموضوع كثيرًا، واستقر بنا الرأي على أن هذا السر لا يخص الحكومة على الإطلاق، ففي النهاية هو أمر خاص بك وحدك، ولك وحدك الحق في التعامل معه كما تشاء.. السؤال المهم الآن هو: ما الثمن الذي تريده مقابل سرك هذا؟ فربما نرغب في تولي زمام الموضوع، لو اتفقنا على بعض التفاصيل!

كان يبذل أقصى مجهود لديه لتصنُّع اللامبالاة والهدوء، لكنني لمحت بريق الحماس والطمع في عينيه.. حاولت تصنُّع الهدوء مثله، بالرغم من تحمسي بنفس قدر حماسه. قلت:

– حسنًا، لا يخطر ببالي غير صفقة واحدة يمكن أن يجريها رجل بنفس موقفي أيها السيدان.. أريد منكما مساعدتي أنا ورفاقي الثلاثة على استعادة حريتنا، وعندها سنعتبركما شريكين لنا، فنعطيكما حصة الخُمس لتقتسماها معًا.

قال:

– الخمس؟ هذا ليس مغريًا لنا بما فيه الكفاية يا «سمول»؟

– إنه يعني خمسين ألفًا لكل منكما!

– لكن كيف سنتمكن من منحك حريتك؟ أنت تعلم كما نعلم أن طلبك هذا مستحيل!

أجبته بنفس الهدوء، بينما قلبي يدق كالطبل داخل صدري:

– بالعكس، لقد فكرت في الموضوع بالتفصيل، والمانع الوحيد لهروبنا بنجاح هو أننا لا نستطيع الوصول لقارب مناسب، ولا الحصول على ما يكفي من المؤن لمثل تلك الرحلة الطويلة.. هناك العديد من الزوارق والقوارب الشراعية التي تصلح في «كالكوتا» أو «ميدراس»، ولو تمكنتما من جلب أحدها إلى هنا سنغادر على متنه وسط ظلام الليل، وبمجرد أن تنزلونا في أي منطقة على الساحل الهندي ستكونان قد أتممتما دوركما من الصفقة بنجاح!

– كلامك صحيح لو كان الموضوع متعلقًا بك فقط، لكنك تقول إنكم أربعة!

– إما الجميع أو لا أحد، لقد تعاهدنا على هذا!

التفت لرفيقه قائلًا:

– أرأيت يا «موريستان»؟ هذا الرجل يحفظ كلمته مهما حدث، ولا يدير ظهره لرفاقه.. أظن أن بوسعنا الثقة به.

أجابه «موريستان» وقد عقد حاجبيه:

– لكن هذا عمل غير قانوني! لكن كما تقول، أعتقد أن المال الذي سنحصل عليه سيكون كافيًا لتعويضنا عما سيلحق بنا من خسارة رتبنا العسكرية، وربما أكثر.

وهنا توجه الرائد بحديثه لي:

– حسنًا، أعتقد أننا سنحاول تنفيذ شرطك هذا يا «سمول»، لكن يجب أن نتأكد من صحة قصتك أولًا، أخبرني بالمكان الذي يوجد فيه الصندوق، ولسوف أحصل على إذن غياب وأذهب للهند في قارب الإغاثة الشهري لأتأكد من الأمر!

ازداد هو حماسًا، بينما ازددت هدوءًا وأنا أجيبه:

– مهلك يا سيدي، فيجب أن أحصل على موافقة رفاقي الثلاثة قبل أي شيء، فكما أخبرتكما، إما الجميع أو لا أحد.

قاطعني بتوتر:

– ما شأن ثلاثة رجال سود باتفاقنا!

قلت بلهجة قاطعة:

– سواء أكانوا سودًا أم بيضًا فلا يهم، لأنهم شركائي، ويجب أن نكون معًا!

اجتمعنا بعدها مرة ثانية بحضور «محمد سينج» و«عبد الله خان» و«دوست أكبر».. تناقشنا مرة ثانية، وانتهينا إلى الاتفاق على إعطاء الضابطين خريطة لموقع الكنز بحصن «آجرا» نحدد فيها المكان الذي دفنَّا فيه الغنيمة وراء الحائط.. بعدها سيذهب الرائد «شولتو» للهند، ليتحقق من صدقنا. ولو وجد الصندوق، فحسب الاتفاق سيتركه مكانه، ويرسل زورقًا صغيرًا به ما يكفينا من مؤن للرحلة

الطويلة التي تنتظرنا، ثم سيقبع للانتظار بالقرب من ساحل جزيرة «روتلاند»، حيث سنقابله، ثم سيعود هو بعد ذلك لوظيفته.. بعد هذا سيقدم النقيب «موريستان» طلب إجازة، ويلاقينا في بلدة «آجرا» لكي نقوم بتقسيم الغنيمة تقسيمًا نهائيًّا فيما بيننا، فيأخذ نصيبه هو وصديقه الرائد. تعاهدنا على فعل كل ذلك بأغلظ الأيمان التي يمكن أن تخطر بالبال أو ينطق بها اللسان.. سهرت الليلة كلها أرسم الخريطتين، ومع ظهور أشعة الشمس الأولى كنت قد انتهيت، فوضعت قلمي جانبًا، بعد أن وقعت الخريطتين بعلامة الأربعة؛ «عبد الله»، و«أكبر»، و«محمد»، وأنا..

أعرف أنني ثرثرت كثيرًا أيها السادة، ولا بد أنني قد أضجرتكم بحديثي الطويل هذا، وأعرف أن صديقي السيد «جونز» متشوق لوضعي خلف القضبان، لهذا سأحاول أن أختصر بقدر ما أستطيع. ذهب ذلك الوضيع المدعو «شولتو» للهند، لكنه لم يعد مرة أخرى! أراني النقيب «موريستان» اسمه المقيد بكشف المسافرين في أحد قوارب البريد بعد هذا بفترة بسيطة، كان عمه قد مات تاركًا له ثروة كبيرة، فقام بالاستقالة من الجيش، لكن ومع ما آل إليه من ثروة بشرف، إلا أن هذا لم يمنع الملعون من التصرف بوضاعة معنا.. ذهب «موريستان» إلى بلدة «آجرا» بعدها بفترة قصيرة ليكتشف – كما توقعنا جميعًا– أن الكنز قد اختفى.. سرقه ذلك اللص بالكامل دون تنفيذ ولو شرط واحد من شروط الاتفاق الذي حصل مقابله على هذا السر.. ومنذ ذلك اليوم لم أعد أبغي غير الانتقام! صرت أفكر فيه طيلة النهار، ثم أحلم به طيلة الليل. صارت فكرة الانتقام منه شغفًا عميقًا يحركني.. لم أكترث لقانون، ولا لحبل مشنقة، لأن فكرة الهروب والبحث عن المحتال المدعو «شولتو» حتى أضع يديَّ حول رقبته كانت هي الفكرة الوحيدة التي سيطرت على عقلي.. حتى كنز «آجرا» لم يعد مهمًا، فالمهم عندي هو الانتقام من «شولتو»!

كثير من الأشياء عاهدت نفسي عليها في حياتي، وأقول لك يا سيدي أنني لم أحنث بأي قسم قطعته قط.. لكن هذا القسم بالذات مرت سنوات كثيرة قبل أن أتمكن من الوفاء به.. سبق أن ذكرت لكم أنني قد تعلمت بعض الأشياء عن العقاقير.. وخلال فترة كان الطبيب «سوميرتون» راقدًا في الفراش لإصابته بالحمى، تمكنت مجموعة من المساجين من الإمساك بأحد السكان المحليين لجزيرة «آندمان» بالغابة، وكان الرجل مريضًا بشدة بمرض مميت، فذهب لمكان منعزل ليموت فيه بهدوء.. المهم، اعتنيت به، ومع أن مرضه كان خطيرًا جدًّا إلا أنه قد تحسن بعد بضعة أشهر من رعايتي المستمرة، وصار قادرًا على المشي من جديد، ومن وقتها وهو شديد الإعجاب بي، ورفض العودة لغابته، وصار يفضل التسكع طيلة الوقت بالقرب من كوخي.. وبمرور الوقت تعلمت شذرات من لغتهم الغريبة؛ مما زاد من إعجابه بي.. كان ذلك الرجل يُدعى «تونجا»، وكان بحارًا بارعًا، يملك قاربًا كبيرًا.. وبما أني أدركت أنه مخلص لي، ومستعد لفعل أي شيء أطلبه منه، فقد أيقنت على الفور أن تلك هي فرصتي الوحيدة للهروب!

حكيت له قصتي، واتفقنا أن يأتي بقاربه في ليلة معينة للمرفأ القديم الذي لا توضع عليه أي حراسة، ويلتقطني من هناك.. أخبرته أن يُحضر معه عدة أوعية مليئة بالمياه، والكثير من ثمار «اليام» وجوز الهند والبطاطا..

وقد كان «تونجا» مخلصًا ووفيًّا إلى أبعد الحدود كما توقعت منه؛ أتى بمركبه للمرفأ عند الموعد المحدد، لكن تصادف مرور حارس السجن بالمكان، وعندما رأيت وجه الحارس عرفت أنه «باثاني» البغيض الذي لم يكن يترك فرصة لإهانتي إلا وانتهزها، وكنت قد عاهدت نفسي على الانتقام منه، وأعتقد أن هذه أفضل فرصة لفعلها!

كأن القدر وضعه في طريقي ليلتها لكي أفي بعهدي لنفسي قبل رحيلي عن تلك الجزيرة اللعينة للأبد.. وجدته يقف عند الضفة وقد أعطاني ظهره، بينما حمل سلاحه على كتفه.. بحثت حولي عن حجر أهشم به رأسه، لكنني لسوء الحظ لم أجد واحدًا، وهنا فكرت في وسيلة أخرى، فجلست على الأرض وسط الظلام، وخلعت ساقي الخشبية، وبثلاث وثبات طويلة كنت قد انقضضت عليه.. حاول إطلاق النار عليَّ، لكنني هويت بالساق الخشبية بكل قوة على جمجمته فهشمت الجانب الأمامي منها بالكامل!

لا يزال موضع انشقاق الخشب نتيجة ضربه ظاهرًا، لتتأكدوا من صدق كلامي.. سقطنا على الأرض نحن الاثنان، إذ فقدت توازني، وحينما نهضت بعد مشقة، وجدته راقدًا لا يتحرك!

اتجهت بسرعة لقارب «تونجا»، وخلال ساعة كنا في عرض البحر.. كان رفيقي في السفر قد أحضر معه كل ما يملكه في الحياة من أسلحة وتماثيل لآلهته، ومن ضمن ما أحضره كذلك حربة طويلة من البامبو، وحصيرة من قشر جوز الهند الذي ينمو بجزيرة «آندمان»، فصنعت منهما شراعًا مرتجلًا، وظللنا نتخبط لعشرة أيام كاملة في انتظار أن يحالفنا الحظ، وفي اليوم الحادي عشر انتشلتنا باخرة تجارية كانت في طريقها من «سنغافورة» إلى «جدة»، وعلى متنها بعض الحجاج الملاويين.

كانت مجموعة غريبة، لكن سرعان ما اندمجت أنا و«تونجا» وسطهم. أكثر ما ميزهم في نظري أنهم يتركون المرء وحاله، فلا يضايقونه بالأسئلة.

لا أظنكم راغبين بمعرفة المغامرات والأخطار التي مررت بها مع رفيقي في السفر، لأن تلاوتها على مسامعكم سيستغرق حتى شروق الشمس.. سافرنا هائمين على وجهينا عبر العالم، لكن كان هناك شيء ما يحدث دائمًا؛ فيمنعني من زيارة «لندن»، لكن غايتي لم تغب يومًا عن عينيَّ، فكنت أحلم كل يوم بـ «شولتو»، وقتلته لعشرات -إن لم يكن مئات- المرات في أحلامي..

ومنذ ثلاث أو أربع سنوات وجدنا نفسينا في إنجلترا أخيرًا.. لم أواجه صعوبة في التوصل لمقر إقامة «شولتو»، وبدأت عملية بحثي لأعرف هل لا يزال يحتفظ بالكنز في صورته الأصلية أم أنه قد حوله لأموال سائلة.. هكذا تقربت ممن أعتقد أنه يمكنه مساعدتي، ولن أذكر اسمه فلا رغبة لي في توريط أحد في الموضوع، وعرفت أنه لا يزال يحتفظ بالجواهر كما هي.. حاولت بعد هذا الوصول إليه بشتى الطرق، لكن اللعين كان شديد المكر والدهاء، فكان يحرسه طيلة الوقت ملاكمان محترفان، بالإضافة لإقامة ابنيه وخادمه الهندي معه.

سمعت ذات يوم أنه على فراش الموت، فهرعت نحو حديقة منزله وأنا كُلِّي خوف أن يتمكن من الإفلات من قبضتي بتلك الطريقة، وعندما اختلست النظر عبر النافذة، رأيته حقًّا يرقد في فراشه، وقد جلس ابنيه على الجانبين.. نويتُ المخاطرة والدخول عبر النافذة والمجازفة أمام ثلاثتهم، لولا أني رأيت فكه يتدلى لأسفل بمجرد أن نظرت إليه، وأيقنت لحظتها أنه قد مات!

لكنني دخلت حجرته تلك الليلة على أي حال، وفتشت أوراقه بكل عناية لأرى إن كان فيها أي إشارة لمكان كنزنا، لكن بلا فائدة؛ فرحلت وأنا في أشد الغيظ والغضب.. ذكرت نفسي وقتها أني لو قابلت رفاقي السيخ ثانية، فسيستريحون لمعرفة أنني قد تركت علامة تدل على كراهيتنا له؛ ولهذا رسمت علامة الأربعة الخاصة بنا كما رسمتها من قبل على الخريطة، وتركتها على صدره، لأنه عزَّ عليَّ أن يواريه الثرى بتلك البساطة دون أن أترك له تذكارًا من الرجال الذين سرقهم في الماضي..

كنا نكسب قوتنا حينها من عَرض «تونجا» منكود الحظ في العروض الترفيهية وما شابهها على أنه شخص أسود من نسل آكلي لحوم البشر.. كان يأكل اللحم النيئ، ويرقص رقصة الحرب أمام المتفرجين، فتمتلئ قبعاتنا في نهاية اليوم بالنقود المعدنية..

كانت أخبار منزل «بونديتشيري» لا تزال تصل إليَّ، ولعدة سنوات لم تأتِ لي إلا أخبار بحث ولديه المحموم عن الكنز بلا فائدة.. لكن ذات يوم أتاني الخبر الذي أثلج صدري، وهو نبأ العثور على الكنز، والذي كان مخبأً في الجزء العلوي من البيت، داخل معمل السيد «بارثيلوميو شولتو» الكيميائي.. ذهبت من فوري للمنزل وألقيت نظرة على المكان، لكن ظلت ساقي الخشبية تقف حائلًا بيني وبين التسلق.. عرفت بوجود باب أفقي بسطح المنزل، كما عرفت الموعد الذي يتناول فيه السيد «بارثيلوميو شولتو» عشاءه..

عرفت أنه لا مفر من طلب المساعدة من «تونجا» للقيام بهذا الأمر، فأحضرته معي، وقمت بربط حبل طويل حول وسطه، تسلقَ الملعون بمهارة كالقطط، وتمكن خلال لحظات معدودات من الوصول للغرفة عبر السطح، لكن حظنا السيئ تدخل في تلك اللحظة؛ فاكتشف أن «بارثيلوميو شولتو» لا يزال داخل الحجرة.. ظن «تونجا» أنه قد تصرف بذكاء عندما قتله بتلك الطريقة الغريبة، فقد فوجئت به يعود متبخترًا في خيلاء كالطاووس بعدما قمت بتسلق الحبل، ودخلت الحجرة.. دُهِش «تونجا» من رد فعلي وقتها، عندما قمت بضربه بطرف الحبل، ووصفته بالشيطان الصغير المتعطش للدماء.. أخذتُ صندوق الكنز وربطته جيدًا بالحبل، قبل أن أنزله من النافذة، ثم نزلت من بعده بعدما تركت علامة الأربعة على المنضدة، للدلالة على أن الكنز قد عاد لأصحابه الأصليين.. بعد هذا قام «تونجا» بسحب الحبل وإغلاق النافذة، وهرب من نفس الطريق الذي دخل منه!

هذا هو كل ما لدي لأتلوه على مسامعكم.. سمعت أحد البحارة يتحدث عن مدى سرعة زورق «أورورا» المملوك لرجل يُدعى «سميث»، ففكرت لحظتها أنه سينفعنا في الهروب.. اتفقت مع «سميث» العجوز، ووعدته بإعطائه الكثير من المال لو أوصلنا لسفينتنا دون متاعب.. لا بد أنه كان مدركًا لوجود خطأ بصددنا، لكنه لم يعرف أي شيء عن موضوعنا..

تلكم هي الحقيقة كاملة، ولم أحكها لكم أيها السادة بقصد الترفيه عنكم، فأنتم لن تنفعوني بشيء، لكن لأنني أثق أن خير سبيل للدفاع عن نفسي هو قول الحقيقة كاملة؛ ليعرف الكل كم أوقع عليَّ الرائد «شولتو» من ظلم! وكم أنني بريء من دم ابنه!

ساد الصمت للحظات، قبل أن يرتفع صوت هولمز أخيرًا:

– يا لها من قصة غريبة! وأنسب خاتمة لمثل تلك القضية المثيرة.. لكنني يجب أن أعترف أنني لم أجد جديدًا في الجزء الأخير من قصتك، فيما عدا نقطة إحضار حبلك الخاص، فلم أكن أعرف هذا.. بالمناسبة، كنت آمل أن تكون جعبة «تونجا» قد فرغت من السهام، لكنني وجدته يطلق علينا واحدًا ونحن نطاردكما بالزورق!

– كان قد فقدها جميعًا يا سيدي، السهم الذي أطلقه نحوكم كان عالقًا داخل أنبوب النفخ نفسه.

– أوه، صحيح، لم أفكر من تلك الزاوية!

هكذا أجابه هولمز، فسأل «سمول» بهدوء:

– أهناك أي نقاط أخرى ترغب في الاستفسار عنها؟

– لا أظن، شكرًا لك..

وهنا تدخل «أثيلني جونز» بالحديث فقال:

– حسنًا.. نحن جميعًا نعرف مدى خبرتك يا هولمز بمجال الجريمة، لهذا لم يكن لدي مانع في مسايرتك، لكن الواجب هو الواجب، ولقد تماديت كثيرًا حقًّا عندما استجبت لطلباتك أنت وصديقك الطبيب.. لن أرتاح إلا بعد وضع رفيقنا هذا خلف القضبان.. ما زالت عربة الأجرة تنتظر، وهناك شرطيان في الأسفل كذلك.. يجب أن أقول إنني ممتن جدًّا لما قدمتماه لي من مساعدة، وبالتأكيد سنقوم بطلبكما للشهادة في المحكمة.. تصبحان على خير..

قال «جوناثان سمول»:

– طاب مساؤكما أيها السيدان.

سار «جونز» بحذر وراء «سمول» وهما يغادران الحجرة، وقال جونز لرفيقه ذي الساق الخشبية:

– من بعدك يا «سمول».. يجب أن أتوخى الحذر حتى لا تفعل بي كما فعلت بذلك الرجل الذي حطمت رأسه بجزر «آندمان»!

****

جلسنا بعد رحيلهما ندخن في صمت لبعض الوقت..

علقت فجأة بقولي:

– لقد انتهت المأساة، لكنني أخشى أن تكون هذه هي آخر فرصة تُتاح لي لدراسة أساليبك، فقد منحتني الآنسة «موريستان» شرف قبول عرضي للاقتران بها.

صدرت عن هولمز إيماءة، دلتني على مدى اغتمامه بالخبر، وفي النهاية قال:

– كان هذا ما أخشى حدوثه.. ليس بوسعي غير تهنئتك يا صديقي.

ضايقني قوله، فسألته:

– هل هناك ما يجعلك غير راضٍ عن اختياري لها؟

– مطلقًا، فهي من أكثر الشابات اللاتي رأيتهن جاذبية وسحرًا، وكان من الممكن أن تفيدنا كثيرًا في عملنا؛ لأنني توسمت فيها موهبة لا غبار عليها في ذلك المجال؛ ألاحظت كيف احتفظت بخريطة كنز

«آجرا» دونًا عن كل أوراق والدها الأخرى؟ لكن الحب شيء عاطفي، وأخشى أن كل ما هو عاطفي يتعارض مع المنطق الذي أسمو به فوق كل شيء آخر في العالم.. لهذا لا أنوي الزواج مطلقًا، حتى لا يتأثر حكمي على الأمور.

قلتُ له ضاحكًا:

– لا أظن حكمي على الأمور سيتأثر بهذا الموضوع.. لكن لماذا تبدو مرهقًا لتلك الدرجة؟

– لقد بدأت آثار الإعياء تظهر عليَّ فعلًا.. أعتقد أنه لن يمر عليَّ أسبوع قبل أن أكون قد رقدت ساكنًا بلا فائدة كخرقة قماش بالية.

– ما زلت لا أفهم كيف يتناوب عليك الكسل مع نوبات النشاط الشديدة!

– نعم، نعم، فأنا أملك كل ما لدى الشخص الكسول من مقومات، وأنا كذلك شخص شديد النشاط في ذات الوقت، وكثيرًا ما أجد نفسي أفكر في تلك السطور التي كتبها «جوته»: «من المؤسف أن الطبيعة لم تصنع منك إلا نسخة واحدة فقط، فقد كان هناك ما يكفي لخلق رجل صالح، وآخر محتال!»

وفيما يخص قضية «نوروود» الغريبة، فلقد كان للمجرمين شريكٌ من داخل البيت كما توقعنا، وكان ذلك الشريك هو الخادم «لال راو»، لهذا فإن الفضل كله يرجع لـ «آثيلني جونز» في الإيقاع بسمكة واحدة من المتواطئين الفعليين بشباكه..

أجبته بقولي:

– ليس هذا عادلًا، لقد قمت أنت بكل العمل في تلك القضية، وفزت أنا منها بزوجة، وفي النهاية يُنسب الفضل كله لـ «جونز»؟ ماذا يتبقى لك إذن؟

ضحك هولمز قائلًا:

– في الحقيقة، لقد تبقت لي قنينة الكوكايين..

وأتبع جملته بأن مد يده البيضاء الطويلة الأصابع نحوها ليلتقطها.

تمت